
شمس

التساهيل

في نزع الهلاهيل

الكتاب : التساهيل في نزع الهلاهيل (رواية)

المؤلف : زين الدين عبد الهادي

الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٧٣٦٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 40 - 1

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٦٤/٦٥(٠٢)٠١٨٨٨٩٠٠٦٥

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : الفنان أمين الصيرفي

رواية

التساهيل

في نزع الهلاهيل

زين عبد الهادي



إليهم جميعًا

إلى هؤلاء الذين عاشوا أو ماتوا بحلم وحيد لم يتحقق،

أكتب مرثيتكم اليوم.

زين

أغسطس 1990



(١)

"سوسن"

لست أنا الذي رحل، إنه شخص آخر

هل طق عرق في نافوخي فجأة؛ فحوله لملايين الشظايا الضوئية المتناثرة، تدعوني للشتات والخروج بين يوم وليلة؟

انقطعت أخبار "سوسن" عني منذ شهرين بالتمام والكمال، كما انقطعت عني أخبار الصديق "رحيم" منذ عام ٧٣، انقطع الحبل السري الذي كان يربطني بالحياة هنا، فَلأمت إذن في أي مكان تقودني إليه قدماي المتعبتان.

قالت في خطابها الأخير بأنها سوف تسافر إلى بلد عربي، وأنها قلقة من عدم ردي عليها، أما أنا فقد كنتُ أقبع هناك، في نقطة صفرية، في قلب "سيدي براني" بالصحراء الغربية. أرتدي تلك الملابس الزيتية، فأبدو كشجرة سقطت أوراقها فجفت على وشك أن تموت بعد أن أشبعتها الوحدة والريح تلطيمًا.

قلبُ السماء الملتهبة دائمًا مفتوحًا يَنِزُّ رياحًا وحرارة، وعلى مدِّ البصر تنشر صحراء غريبة نفسها فتعلو وتهبط وتتكور تشبه الحرباء، تتلون بين الأصفر والأحمر بقواقعها المتحجرة المتناثرة على سطحها فتبدو كحيوان يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وكان ذلك يزيد من ارتفاع ضغطي. قال لي الطبيب وقتها بأني مازلت صغيرًا على الضغط، ولكن قضي الأمر، حيث وقّعتُ العقد بعد تسريحي بأيام قليلة.

* * *

حمّصتني الشمس هناك ففقدت لوني، بالإضافة إلى حالة من الهزال كنتُ أعانيها، أما عظم وجنتي فقد أصبح بارزًا بشدة، وإن أرجعت ذلك إلى كثرة التمارين الرياضية اللعينة التي زاولْنَاها هناك. الحقيقة أنها لم تكن تمارين معروفة فقد كنا نتنطط كالقردة واضعين أيدينا فوق رؤوسنا، أو يحلو لهم أن يجعلونا نزحف على بطوننا كالثعابين والسحالي المنتشرة هنا والتي كانت تتطلع لنا في سخرية، وهي تهزُّ ذيولها اللامعة، أما الأعلى مرتبة منا فقد انتابهم الخوف من تفشي الأمراض الجلدية والتناسلية بيننا بعد اكتشاف بعض

حالات الجرب والزهري، وهكذا صدرت لنا الأوامر بضرورة الاستحمام اليومي، حيث كنا نقفُ بين حوائط الريح والسقف الأحمر اللاهب اللامتناهي نستحم بجفنة من الماء، مع كشف طبي أسبوعي على شعر العانة وفتحة الشرج، حيث نضطر لخلع سراويلنا كل صباح "سبت" والانحناء أمام الطبيب صغير السن ونحن نهز مقعداتنا العارية، حيثُ كان يخيل لنا أحيانًا أنه يمكنه أن يدب بإصبعه في فتحة شرج أي واحد فينا وهو يقول له "خذ شهيق، خرج زفير" حتى حفظنا ما يقول؛ فكنَّا نفعل ذلك دون أن ننتظر عبارته الشهيرة. أو يأمره بالوقوف والسعال وهو يحلق بقوة في عضوه التناسلي المرتخي يلاحظ اهتزازه، وكنت أظنه أحيانًا يلعب بخصياتنا المعلقة في الهواء، ومع ذلك لم يكن أي منَّا يشعر بالحرج، رغم ذوي المراتب الكبيرة والصغيرة والجمال والكلاب وأطفال البدو المتناثرين على البعد، وبعض حبات الرمال التي كانتْ تلتصق أحيانًا بمؤخراتنا وعيوننا تاركة آثارها المتربة في إصرار عجيب داخلنا وخارجنا. كنتُ أتطلع إلى هذا الطبيب وهو يمر بيننا فأجله يفعل ذلك بلامبالاة متناهية، لكن كانت عيناه تفيضان ألمًا لا ينتهي، وكنتُ أسمعه يتقيأ في ملجأه أحيانًا بعد انتهاء طابورنا الصباحي.

قـال لـي القائـد بعـد أن انتهينـا "أريـدك في مكـتبي بعـد انتهـاء الطابور" وبعد أن خرجت من مكتبه كنت أحمل خطابًا لزوجته في القاهرة وعلبة كرتونية كبيرة مغلقة، وقال لـي وأنـا أهـم بـالخروج "قبل أن تصل بيـتكم" وابتسـمَ ابتسـامة عريضـة وهـو يحـذرني بإصبعه الغليظ الناعم، ثم ربت على كتفي وشد على يديَّ. حملت العلبة الكرتونية وأوليته ظهري وخرجت.

ربما كانت الميزة الوحيدة خلال فترتـي الأخـيرة أنـني كنـت أسـكن قريبًا من بيته، ورغم ذلك فلـم تطـأ قـدماي أرض القـاهرة طـوال فترتي سوي ثلاث إجازات، وكانت الأخيرة لمدة يـومين لوفـاة أمـي، أما الرابعة القادمة فتنتهي بها علاقتي بالمكـان والنـاس، ولم أتـذكر من وجه القائد بعـد ذلـك سـوى شـاربه الأصـفر الكـبير اللامـع ووجنتيه السمينتين، وابتسامته الرائقة أثناء وداعي.

* * *

كنًّا المكان الوحيد الـذي يمتلـك سـجنًا، كـان السـجن عبـارة عـن مجموعة من القضبان الحديدية المغـروزة في الرمـال والمطليـة بلـون أخضر زرنيخي ومغطاة بسقف اقتطع من عربة نقـل "زل" كـبيرة،

أغلب الوقت كان السجن مفتوحًا، وطوال فترتي لم أشاهد به سوى اثنين، الأول ذو وجه سحقته الشمس بضراوة؛ وجه ممصوص وأسنان رفيعة حادة، صامتًا بشكل دائم، امتدت فترة سجنه لسبع سنوات على فترات متقطعة بسبب هروبه المستمر، وحين حاولت الحديث إليه ذات ليلة نظر في وجهي بعينين رهيبتين ثم ابتسم وقال "نسيت الحريم" ولكني كنت متأكدًا أني لم أسأله قط عن النساء، ثم أشعل عقب سيجارة محلية وراح ينفث دخانها في وجهي وهو يبتسم تلك الابتسامة المتشفية الغريبة. أما الثاني فكان صعيديًا سمينًا ممتلئًا بالحكايات الغريبة يُدعى "شعبان" ذهبتُ به للصحراء الأخرى القريبة ذات ليلة لدى سرية المياه المجاورة لنا، وهناك عرفت سجائر الحشيش للمرة الأولى، وحكى هو وكنا نضحك عن المرأة التي التقطته من الشارع حين نزل القاهرة أول مرة، وذهبت به إلى فندق شعبي رخيص، وفي حجرة داخلية بات معها ثلاث ليالٍ، وحين كان يشعر بالتعب من طلباتها المستمرة في الليل كانت تدعك له طرفه بقطعة من الأفيون فيستعيد رجولته، تضربه ويضربها وتركب فوقه وفي النهاية ينام معها، وفي اليوم الرابع كان الوهن قد نال منه، قفز هاربًا من الشرفة إلى الشارع وركض بكل ما بقى فيه من قوة والمرأة تصيح به، سقط سرواله

وهـو يجـري فخلـع نفسـه منـه واسـتمر في الجـري. وحـين تلفـتُ وجدتهم غارقين في ضحك هستيري وأنا معهم، تركتهم وتوغلـت في الصحراء لقضاء حاجة، وتذكرت فجأة قبل أن أنهي فعلتي أنـني الحارس وهو السجين وأني تركت بندقيتي هنـاك، وعـدت مسـرعًا وأنا أتحسس طريقي نحو الكارثة، لكني وجدته نائمًا يشخر، محتضـنًا بندقيتي بين يديه، وتساءلت بيني وبين نفسي لماذا لم يهرب، ولمـاذا لم يأخذها معه؟ وتخيلته هاربًا ومعه بندقيتي وأنا خلفـه أطـارده، وأنـني ألهث وأقع وأقوم وأصرخ، ولكني انتبهـت فجـأة عليـه وهـو يفـتح عيونـه الضـاحكة، وعـدنا مـرة أخـرى لمكاننـا وهـو يسـير بجـانبي، يتحنجل ويقفز ويتطلع إلى الأعلى بنظـرات مبتسـمة بريئـة مناديًـا سرابًا في خياله هو فقط، يقف فجـأة ويطيـل التطلـع صـارخًا "يـا حي" أما إحساسي بالقلق فإنه يختفـي، وأقهقـه في عنـف، يـركض أمامي وأنا خلفه.

* * *

ما الذي دعاني للتفكير في "سوسن" تلك الليلة؟ خطابها الأخـير يقول بأنها ستذهب، ستسافر، أو أنها سافرت بالفعل، كان الخطاب مفتوحًا حين استلمته وحين رأيت حوافه الوردية اللون قـد تمزقـت

وتدلت إلى الأسفل شعرت بأن الخطاب يخرج لي لسانه بعد أن نزف ومات وشبع موتًا، وحين قرأته سألت نفسي "هل مات كل شيء بيننا حقًا" ولكنني كنت متعلقًا ببعض حبال الأمل الذائبة في أن أراها في القاهرة حين أصل وقلت لنفسي "ليس من المعقول أن تسافر هكذا دون أن تراني وهي تعلم بأني سأخرج من هنا خلال بضعة أسابيع".

* * *

قال رفاق "القروانة" أنه من الجنون أن ننام الليل، قلت من أين يأتي النوم، وكان البرق يضرب صدر السماء فيفتحها في قسوة متناهية دون مطر، أشعر أحيانًا بأن من أتى بنا إلى هنا يسخر الآن ويضحك ملء شدقيه، ينام في أحضان جواريه وعيوننا مفتوحة على اللاشيء في هذه الصحراء القاتلة.

* * *

في المساء جلسنا في مكاننا الرملي المعتاد بين حشائش الصحراء البرية والصخور اللامعة الناتئة على البعد كشواهد القبور، فتحنا الراديو الصغير البني اللون، وزعت بعض السجائر عليهم،

استلقينا واضعين مرافقنا تحت رؤوسنا وانطلقت سحب الدخان من بيننا، وكانت إذاعة الجماهيرية تبث نشيدها الليلي المعتاد المتلىء بالدماء والجماجم التي ستصنع للعزة سلالم، بينما إذاعتنا تعلن موت بعض القادة العسكريين بينهم الفريق "بدوي"، حيث كانوا يستقلون طائرة هليكوبتر واحدة سقطت بهم بفعل عاصفة ترابية، وكان الليل رائقًا على غير العادة، وأخيرًا استمعنا إلى أم كلثوم وهي تغني الرباعيات، سألني "عادل البحراوي" ماذا ستفعل بعد خروجك؟ حقيقة لم أكن أدري وقتها ماذا أفعل، سألت نفسي هذا السؤال كثيرًا هل سأترك عملي كموظف في المكتبة العامة، وهل حقًا سأسافر، تعودت في الفترة الأخيرة على تغيير رأيي دائمًا ولم يكن هناك سبب واضح لذلك، وتساءلت إن كنت سأقابل "سوسن"؟ وهل حقًا سأنتقل من هذا العالم البعيد إلى العالم الأبعد الذي جئت منه؟ المصير غير واضح، يكتنفه ضباب قاس لا ينزاح من العيون أو الصدور أو حتى الطريق، كيف سأحيا هناك، هل سيقدر لي الخروج من هذا الجحيم المميت؟

في اليوم الأول لوصولنا أرض الكتيبة بعد أن سرنا حوالي أربع ساعات على طريق إسفلتي تستعمله عربات الجيش ثم دخلنا في مدقات صخرية تمتلىء بنباتات شوكية تقاوم عنف الصحراء

وتبشرنا بما هو آتٍ، وقفنا أمام الصول "سلامة"، ستة عشر فردًا مؤهلات عليا ملحقين إلى كتيبة مشاة أقدم عسكري فيها لا يعرف الألف من كوز الذرة، ألقينا بالمخالي على الأرض أمامنا ونحن نتصبب عرقًا غليظًا يمتلئ رهبة وحنقًا، وقفنا صفًا في مواجهة ملجأه الحجري الذي يبدو كجحر فأر، خرج إلينا وقد عصب رأسه بفوطة كالحة، وزَّعَنا سريعًا على بقية ملاجئ الكتيبة، ودخل لينام.

ألقينا بأنفسنا على أرض الملجأ ورحنا في نوم عميق، أيقظنا الأومباشي "عبد الجبار"، وكان قصيرًا ذا أنف صغيرة للغاية نبتت في وسط رأسه تمامًا، أو هكذا ظننت حين فتحت عيني بعد أن ضرب بقدمه في مؤخرتي وكانت الساعة الرابعة فجرًا، قال وهو يصرخ "قوم يا روح أمك، إنت فاكر إنك جاي تنام هنا ولا إيه؟ إنت في جبهة يا عسكري"، بعد لحظات تم سحبنا جميعًا إلى مطبخ الكتيبة، الرابعة فجرًا ونحن لا نقوى على الوقوف سرنا في الصحراء الباردة برودة الموتى، بدأ جيشنا الحقيقي منذ هذه اللحظة ولمدة عام أو يزيد، وهكذا ظللنا مدة سبعة أيام لا نكاد ننام ساعتين في اليوم والباقي نقضيه في طوابير شمسية، وطلبة مطبخ وحراسة ليلية على بعض المساجين الذين رأى البعض منا أن على الجيش أن يتخلص منهم بأية وسيلة حتى لو أطلق عليهم النار.

لم تقتصر المعاملة الجافة على صف الضباط بل نلنا نصيبنا من العساكر القدامى، حتى ظهر أول ضابط في الكتيبة وفهمنا السبب وراء وجود الجيش في الصحراء الغربية. قال الخبثاء مِنَّا إنها "كامب ديفيد" والسيد "كارتر" والسيد "بيجن" و"الرئيس المؤمن"، لعنَّا كل من كانوا السبب، وكأننا على خط النار مع "إسرائيل"، ماذا نفعل هنا يا أولاد الكلب؟ ماذا نفعل في مواجهة "القذافي" وأعراب الصحراء وخيامهم الملونة الممتدة على مرمى البصر؟ تعلمت أن الجميع يعاني من الفراغ القاتل، على المقاتل الآن أن يحارب الريح والفراغ وذباب الوجه وأتربة المؤخرات.

* * *

كرهتُ كل شيء فجأة وأصبحت مصابًا بالضغط العالي والواطي وأنا صغير، وشعرت بارتفاع ضغطي في أول إجازة لي بالقاهرة، كنت أقف وحيدًا على محطة القطار أشاهد نفسي في الظلام، هل كنت الوحيد بين أبناء المدينة الذي يسافر، لا أظن أني بكيت، كانت الإجازة قصيرة للغاية استغرقتها في السفر بين مرسى مطروح والقاهرة بهذا القطار المفتوح الأبواب، والنوافذ التي تعانق

الأتربة، وروائح مصانع الأسمدة والنشادر. رائحة الحشيش تتسلل إلى أنفي في الرابعة أو الخامسة فجرًا، حيث ألمحهم جالسين في مدخل عربة القطار يتبادلون سيجارة وحيدة سرعان ما تموت بين أصابعهم، ولم أجرؤ على مشاركتهم رغم الدعوة المفتوحة منهم للجميع، كنت أشعر بطيبتهم لكنني فضلت القبض على تلابيب الصمت وتهويماته، يرتمون بعد ذلك في نوم عميق وقد أنهكهم السهر والهروب، يتصاعد شخيرهم معلنين في وضوح عن سيمفونية الإنهاك الليلية، مصابون هُمْ بلا مبالاة قاتلة، أجلس في الركن أطالع مجلة أو كتابًا دون أن أتحرك، والنوم لا يأتيني أبدًا، عيناي مفتوحتان عن آخرهما تطاردان أحيانًا حبات الرمال العالقة في الهواء حين ندخل صحراء الإسكندرية، أرخي جفوني محاولاً النوم، ولكني كنت أفتحهما سريعًا في قلق، أنتفض على الشمس التي تسبح في الفضاء الغويط بجانبي، أضع الجريدة فوق رأسي، بينما يبدأ الجميع في الاستيقاظ، أفتح عيني في ظلام الجريدة، كل شيء مطموس حتى أنا.

* * *

قال "البحراوي" ذات مرة إنه سيسافر إلى "السعودية"، ولم يزد، عيناه مدورتان كعيني صقر لكني لم أكن أراه إلا مطأطئ الرأس في طوابيرنا الصباحية، يردد تلك العبارة دائمًا وعيناه تلمعان بشدة، أما أنا فكل ما كنتُ أريده هو أن أرى "سوسن" وكنت أنسى دائمًا أنني السبب وراء انقطاعها عني، ولكني كنت كالميت هناك، أسأل نفسي إذا كانت ستلتمس لي العذر، ثم تهيج خيالاتي فأنسى. قال "زكريا" آنفًا ذات يوم إنه سيعمل محاسبًا في شركة للمقاولات، وأضاف بأن شركات المقاولات تكسب جيدًا في مصر، وأضاف بأنها المستقبل الحقيقي.

ناداني فجأة عسكري الخدمة المعيَّن على الميز وقال بأن الضابط "ميشيل" يريدني، وحين ذهبت معه وجدته يقف أمام باب غرفته المجاورة للميز محاطًا بمستطيل الضوء الأصفر الباهت الخارج منها، كان طويلاً كفرعون وكنت أقصر منه قليلاً، تصادقنا منذ نزوله تلك الأرض، اصطحبني إلى غرفته وهو يضمني تحت كتفه ولم أكن قد تحققت من ملامح وجهه في الظلام، حين بدأتُ ألاحظ القلق الناشع في عينيه الواسعتين والذي سرت عدواه إليَّ فبدأت أقلق، جلست على طرف سريره بينما أخذ هو يدور في الغرفة، ونطق أخيرًا، لا أدري ما الذي قاله أو ما الذي كان يريد قوله على وجه

التحديد، كان يتحدث عن خطيبته في الإسكندرية وعن أمه وأخته وعن رغبته في أن تنتهي مدة خدمته ليعود لخطيبته بسرعة، وقلت له الزمن يجري هنا مسرعًا لا يتوقف، في الحقيقة كنت أشعر بأني أكذب فقد مرت عليَّ أوقات أحسست فيها أن الزمن توقف وتلاشى وأن هذا هو الأبد الذي لا نعرفه، تطلع في وجهي ثم هز برأسه موافقًا على كلامي، ثم عاد مجددًا إلى سيرة خطيبته التي لا يعلم عنها شيئًا منذ شهرين، وراودني إحساس غريب بأنها قد تكون "سوسن" وابتسمت داخلي ولا أدري إن بانت على وجهي ملامح الابتسامة، كان يتحدث دون توقف، أشعر أن هذا الكلام معاد ومكرر، وكنت قد لاحظت بأن كل شيء يتكرر في حياتي عشرات ومئات المرات، أما الكلمات فلا حدود لتكرارها وكان هذا غريبًا للغاية، وكنت أردد لنفسي تلك العبارة التي سمعتها من "رحيم" ذات يوم "لو لم يتكرر الكلام لنفد" وأخيرًا طلب مني صراحة أن أنزل الإسكندرية، رددت في تعجب "الإسكندرية!"، وتذكرت رحلات القطار الليلية حين كان يمر من هناك دون أن أراها، العالق بذاكرتي منها روائح المصانع التي كانت تستيقظ في الفجر، أما رائحة البحر، فكانت بعيلة بعد "سوسن" عني في تلك اللحظة، ثم ناولني خطابًا لأمه وآخر لخطيبته، دسستهما في

جيبي ووقفت مترددًا أتطلع إليه في قلق، احتضنني، كان جسده ساخنًا والبرق يضرب في قلب السماء في الخارج، وصوت رعد طويل ينذر بما هو آتٍ، لاحظت الرقاقات التي تزاحمت داخل مآقيه ودفعني إلى الخارج، وسمعت صوت نشيجه الضعيف وأنا أُغلق الباب خلفي.

* * *

اقترب الفجر في تلك اللحظة، ووجدتهم بالقرب من الباب هناك، يقفون في صمت، سرنا إلى مكاننا ونمنا على ظهورنا وأيدينا تحت رؤوسنا نتطلع لبطن السماء الذي يتمزق بعنف، بعد آذان الفجر بقليل وكان الليل قد بدأ يكتسي دهانًا فضيًا يميل إلى الاحمرار، أقبلتْ العربة فنهضت إلى داخل الملجأ الذي سكنته طوال عام وغيرت ملابسي أما زملائي الذين أتوا معي فقد فرقتنا أحداث كثيرة وفي النهاية لم يبق سواي و"عادل البحراوي" الذي انتقل لقيادة اللواء منذ أيام قليلة، أما زكريا فقد قال لي ذات يوم إنه لن يستطيع البقاء في الكتيبة ولو يوم واحد، وأصر على أسنانه وهو يردد: "ها اكفر يا أخي"، وقبل انتهاء فترتنا بشهر انتقل لسرية

الوقود بعد أن دفع لأحد ضباط صفها خمسين جنيهًا وعمل له إلحاقًا، وحين علم الصول "سلامة" كدَّره نهارًا بحاله قبل أن يسمح له بالخروج من الكتيبة. "زكريا شرقاوي" طول بعرض بجمال، لكنه ليس ابن شقاء يحلم بشغل المقاولات، وبعد يومين مات "زكريا" محترقًا بين براميل السولار والبنزين في عاصفة ليلية.

كانوا حولي جميعًا عيونهم معلَّقة بي وضعوا باقي ملابسي في الحقيبة وبعض الأطعمة وعلبتين من السجائر، حين انتهيت احتضنتهم جميعًا، يبدو عليهم التأثر الذي حاولوا إذابته في تعليقات ضاحكة منهكة، أما أنا فقد كنتُ جامدًا للغاية، أفكر في تلك اللحظة بأن ما يحدث الآن قد حدث لي من قبل، فهل كنت أتكرر؟ لا أدري.

ارتميت فوق سطح العربة التي سبقني إليها اثنان من الرفاق بملابسهم الملكية، كنا ثلاثة إذن نودع تلك الدفعة في نفس اليوم، قال أحدهم وهو يبتسم ويتطلع لي من أسفل العربة: "سلم لنا على الإسفلت" وابتسمنا جميعًا.

"إسفلت المدينة أيها العزيز، لك ثمن عظيم في تلك الليالي الميتة".

وحين كانت العربة تبتعد، رأيت أيديهم تلوح في الفضاء، بينما عيونهم الشابة الزاهية بين يديَّ وفي قلبي، وكان ضغطي يرتفع في تلك اللحظة، إلى أن أصبحوا نقاطًا سوداء فوق سطح الأرض الذي بدأ يتكور كبطن امرأة حُبلى، ينذرني أنا سيد العبد بما هو آتٍ.

* * *

فجأة وقفت العربة؛ سمعت صيحته الشهيرة "يا حي" وحين رفعت رأسي، رأيته واقفًا أمامها في قلب الصحراء التي كانت تستيقظ الآن، وكان حارسه الجديد يقف خلفه منتفضًا من الخوف وقد وجَّه بندقيته إلى ظهره، وكنتُ أعلم أنها بندقية فارغة ويبدو أن "شعبان" كان يعلم كذلك، فقد تجاهله وهو يصعد سطح العربة، وكان الظلام قد تلاشى تمامًا ولم يكن هناك صوت سوى للكلاب الصغيرة وبعض الماعز، احتضنني في قوة ثم هبط بسرعة وركض في الصحراء خلفه حارسه الجديد، وكانت السماء تملأ كل شيء، ولاحظت دموعًا ملتصقة بخدي (هل كان يبكي أم كنت أنا الذي يبكي؟ لم أعرف أبدًا).

* * *

كانت الصحراء تسرع خلف العربة، الملق الذي يتجه نحو الإسفلت طويل والصخور الناتئة على الجانبين تقف كشواهد القبور، طالما عبثت بالقواقع المتحجرة فيها، كان هنا بحر أو محيط، وأشجار وغابات، أين ذهبتْ لا أحد يدري، ذهبتْ وذهب زمانها، مات زمانها، تحجر، تلاشى، انزلق، إلى العدم الذي يبتلع كل شيء.

في "سيدي براني" فحصوا أوراقنا بعد أن وقفنا صفًا طويلاً أمام خيمة في الصحراء، وفي النهاية تركونا، ركبتُ عربة "بيجو" حتى "مرسى مطروح"، عربة وحيلة تتجه نحو الشرق، بينما عشرات العربات الأخرى التي تتجه نحو الغرب، نحو "ليبيا" المنجم الجديد للمصريين أو المنفى الجديد، وعلى الجانب الأيسر كان البحر المتوسط، الرمال بيضاء تمامًا مع كثبان عالية للغاية يميل لونها إلى اللون الرصاصي كلما صعدت بعيني، المياه صافية تمامًا، ولكني كنت أريد الهروب من المكان. وفي مرسى مطروح ركبنا القطار نحو القاهرة وكنت أظن أنني أتطلع للصحراء والوديان للمرة الأخيرة ولكني كنتُ واهمًا فتكراري كان ينتظرني في مكان آخر.



(٢)

البحث عن "سوسن"

لا يضير الشاة

في القاهرة أمضيتُ يومين وأنا أبحث في كل مكان عن "سوسن" ولكنها اختفت تمامًا، حتى صاحبتها ذات العيون الخضر الرائقة أنكرتها عني، وكأني كنت أرى امرأة للمرة الأولى، كنت ألاحظ دهشتي التي تتسع مع كل حركة صغيرة من شفاهها القرمزية التي ازدادتا لمعانًا تحت أشعة الشمس، وأنا الذي لم ير سوى شفاهًا زرقاء مشققة بفعل الحرارة والبرودة والسجائر والخمول لشهور، واضطررت للانسحاب في النهاية ورأسي يدور وعيناي تدوران ولا تستقران على شيء. لم أشعر بأني أخون "سوسن" للحظة وأنا أغرق في عيني صاحبتها، أو حين كانت رغبتي ترتفع وأنا أتفرّس في شفتيها، أشعر بأن كل ذلك جزء من "سوسن"، إرثها الذي تركته لي قبل أن تختفي، تركته وهي تعلم بأني سآتي وأبحث،

تعلم بأني سأضل، تركت لـي كـل الضـلال كـي لا أجـدها أبـدًا، تركتني وهي تعلم بأني سأظل أغـرق وأغـوص في هـذا العـدم إلى مماتي.

* * *

تركتُ لـ"سوسن" رسائل في كل مكان كنتُ أذهـب إليـه، وقـال صديقي "صلاح": "ناقص تمشي تنادي عليها في الشوارع... بنـت تايهة يا أولاد الحلال" وضحك كثيرًا وضحكت معه ونحن سـائران نتخبط في سـور كـوبري الجامعـة المـدهون حـديثًا، أتطلـع للعلـم الإسرائيلي الذي يرفرف فوق المبنى العالي هناك، "كامـب ديفيـد" تُذكرني بوجودها دائمًا، ولا أدري إلى متى؟

كان سطح النيل ساكنًا، وأنا أتابع خطـواتي فـوق الإسـفلت الـذي شاهد خطواتنا أيامًا طويلة، وسألت نفسي إن كانت تلك الخطوات ما زالت باقية وعالقة بذاكرة الإسفلت، ولكـن خطـوات العشـاق الآخرين كانت قد محت كـل الخطـوات الأخـرى، ذاكـرة الإسـفلت تتجلد باستمرار، ولكن ذاكرتي أنا توقفتْ تمامًـا عنـد "سوسـن" ولم أعد أرى غيرها.

قلت له "سوف أذهب للإسكندرية يجب أن أنُهي مهمة أخيرة كُلِّفت بها، لنعتبرها آخر مهمة لي هنا"، قال "صلاح": "أذهب معك ولكن دعنا نحتفل بك الليلة"، قال ذلك وهو ينصرف بعد أن أوقف تاكسيًا من النوع القديم، وواصل وهو ينظر إليَّ من النافذة... "سأنتظرك في منزلي الليلة"، وتركني أسير في صف الأشجار التي تتساقط أزهارها الصفراء والحمراء دائمًا، وكانتْ الأرض مغطاة بها، بينما أُتابع أشجار حديقة الأورمان وقد اصفرَّت وذبلت حشائشها، والبركة التي بها قد جفَّ ماؤها، وكان هناك أولادٌ صغار ممزقو الملابس يلعبون الكرة بالداخل، ولكني مضيت.

* * *

في هذا المساء تعطرتُ للمرة الأولى وارتديتُ ملابس نظيفة بعد أن اغتسلتُ وشعرتُ بنشاط غريب يدب في عروقي، وقررت ألا أُفكر في "سوسن" تلك الليلة على الأقل، واتجهت إلى "العجوزة" حيث يسكن "صلاح"، وفي طريقي مررت على مدخل فندق كبير على نهر النيل، لمحتُ عشرات النساء، الغريب أنهن كلهن كن جميلات، واعتقدت في هذه الليلة أن هذا المكان هو مأوى الجميلات في المدينة.

رنين الجرس له صوت جميل، وحين فتح الباب وجدته بملابسه الداخلية فقط فضحكت، قال وهو يضحك هو الآخر "ملابس التشريفة"، ودعاني للدخول، واستقبلتني ضحكتها، وقال وهو يقدمني إليها "سُنسُن/حُسنية"، قالت وهي تبتسم في دلال "ناديني سُنسُن، سُنسُن فقط"، وكانت جميلة بحق، وسألتُ نفسي إن كنتُ قد رأيتها من قبل، وحين سألتها ضحك "صلاح" بشدة وهو يقول "رأيتها في أي سرير". ضربَتَهُ في كتفه، وهي تتطلع إليه في عتاب، مال على أذني وواصل "أخت سُنسُن في حجرة النوم، بعد إذنَك". ودهشتُ: الأختان معًا! ثم نهض نحو الداخل وهو يشير إلى مقاعد حجرة الصالون وقال: "خذ راحتك".

زجاجات البيرة المترنحة على الأرض في فوضى، والطفايات الحبلى بأعقاب السجائر الكثيرة، كانت تُدخن بشراهة غريبة، جلستْ "سُنسُن" على مقعد عريض وربعت قدميها كاشفة عن وركيها الشهيين، وأشعلت سيجارة أخرى ونفثتها فوق رأسها، فاستقر الدخان في سقف الحجرة المطلي باللون الأزرق، ترتدي بلوزة صفراء طويلة وتحتها قميص داخلي أسود لامع، أما سروالها فملقى فوق أحد المقاعد الأخرى في إهمال، تطلعت إليّ ولم يكن في عينيها شيء محدد، وابتسامة خفيفة تتهادى فوق شفتين أكثر لمعانًا، في

البداية شعرت ببعض الحرج، وسرعان ما تلاشى كل ذلك حين قدمت لي سيجارة بعد أن أشعلتها، ثم ناولتني كوبًا من البيرة التي تسيل رغاويها على سطحها الخارجي، حين لامست أصابعها أصابعي، انتبهت لها وسألت نفسي إن كانت "سُنسُن" تعلم أني لم ألمس امرأة منذ عام ويزيد، وتساءلت هل يمكن أن أقول لها ذلك، أقول لها منذ متى، منذ اختفاء "سوسن". ولكني أعلم بأن "سوسن" بالنسبة لي ليست مجرد امرأة، "سوسن" كل شيء، هل "سُنسُن" جزء آخر من "سوسن" وميض عينيها يكشف عن شهوة لا تنتهي، "سُنسُن" جزء من الضلال الذي تركته "سوسن" ومضت، ها هي اختارت حروف اسمها مَن اسم "سوسن" لابد أنها جزءًا منها، هذا الجزء الذي لم أره أبدًا، الجانب المظلم من شخصية ملائكية تركت لي كلماتها وحروفها ونظراتها ورائحتها، تركت وراءها ذهابها الغريب، ودفعتني إلى ظلام الأحاسيس فأصبحتُ ملحوسًا يدفع بقدميه في رمال متحركة فيغوص إلى نهايته المحتومة، أشعر الآن بأني أقبع هناك، هناك في اللامعلوم، أنتظر نهايتي الوشيكة.

أحسست بأن ضغطي ارتفع على نحو ما حين فتحتْ "سُنسُن" أزرار بلوزتها فتكور صدرها أمامي فجأة قافزًا خارج السوتيان،

تناهى إلينا صوت الضحكات الفاقعة الواصل من داخل غرفة النوم، سقطتْ بعض حبات العرق على جبيني سألتني "سُنسُن" فجأة:

 هل أنت مريض؟

هززت برأسي وأنا أبتسم، عادت تقول:

 هل أسكت؟

"ما فائدة الصمت؟ ما فائدة الكلام؟ ما فائدة الوجود؟ لا فائدة من أي شيء".

 هل تُفضل أن نخرج؟ أنا مستعدة.

لا أدري ما الذي حدث، زهدتُ فجأة في جسد "سُنسُن" رغم أنها كانت تدعوني، وكان وركاها البيضاوين بطاقة دعوة مفتوحة على مصراعيها، لكني كنتُ قد انغلقت فجأة من داخلي ولم أفهم معنى لتصرفي اللا أخلاقي في هذا الوقت، وفتحت عيني على دعوتها للخروج، فقلت لها وأنا أنهض:

 فلنخرج.

كنت أريد التخلص من إحساسي الثقيل الذي كبس على أنفاسي وقلبي بأنه لا مناص من ضلالي بعد رحيلها.

 لنقل لهما.

- لا داعي، سنعود، لن نتأخر.

ضحكتْ وهي تردد في دلال:

- هل تريدني أن أخرج هكذا؟

وأشارت إلى ساقيها العاريتين، وكنتُ قد خرجت من باب حجرة الصالة متجهًا نحو باب الشقة حين توقفتُ وأدركتُ أنها بدون سروالها فوقفتُ حائرًا، نهضتْ هي سريعًا ووضعتْ قدميها في الجينز الأزرق ورفعته إلى خاصرتها وشدت السوستة، ثم أغلقتْ أزرار البلوزة الصفراء ووضعت قدميها في الحذاء الأصفر الصغير ولاحظتُ قدميها الصغيرتين فابتسمتُ في حيرة، وأنا أتذكر أن قدمي "سوسن" أيضًا كانتا صغيرتين. وضعتْ حقيبتها على كتفها، وتناولتْ رشفة من كوب البيرة ثم مسحت فمها بظهر كفها، والغريب أنها فعلت كل ذلك بسرعة شديدة كآلة متمرسة، ووضعتْ يدها في ذراعي وهي تبتسم وخرجنا.

أغلقتُ الباب خلفنا بهدوء ولم يكن لدي أدنى فكرة في تلك اللحظة عن المكان الذي يمكن أن نذهب إليه، كنت أشعر بنهدها ملتصقًا بكتفي من الخلف قليلاً، ويبدو أنها تعمدتْ ذلك، وشعرتُ بدفءٍ غريب كنت قد افتقدته بشدة منذ اختفاء "سوسن" وتذكرت اليوم الأول الذي قبلتها فيه، عندما كنا نجلس

تحت كوبري الجامعة وكانتْ تسألني متى سأتقدم لخطبتها وقلتُ لها حين أوفر ثمن الدبلتين ابتسمتْ والتصقتْ بي وكان صوت غناء عبد الحليم يتناهى إلينا في تلك اللحظة من بعيد، حين وضعتُ وجهها بين كفيَّ فاقتربتْ مني ووجدت نفسي أتحسس شعرها الناعم الأسود الطويل، ثم قبَّلتها بين عينيها، ففتحتهما قائلة في غضب لذيذ:

- هذه القبلة معناها الفراق.

قلت لها وأنا أضحك.

- فراق، مستحيل.

وعدتُ أُقبلها مرة أخرى، لكنها أوقفتني وأشارت إلى المراكبي الذي كان يُطل علينا من بعيد ويبتسم، فابتسمنا له.

زغدتني "سُنسُن" في كتفي وقالت:

- أين ذهبت؟

ابتسمتُ وابتلعتُ ذاكرتي التي تحرق كل ما حولي وأنا أول الجميع، لم أكن أريد الصمت لكني كنت أرغب في سماع صوت "سوسن" في تلك اللحظة وبشدة. وأدركت أين رأيتُ "سُنسُن" من قبل.

قال لي الصول "سلامة"، وهو يناولني مجلة البلاي بوي "اقـرأ مـا هو مكتوب لنا، واوعاك تسيب حرف أو كلمـة"، تجمـعَ في ملجـأه خمسةُ صولات آخرين من بقية السرايا، أخذتُ أقرا ثم أُترجم بينما أشعل أحدهم فحم الجوزة، وقام آخر بتنظيف علبة الماء الخاصة بها، وقام ثالث بتسوية قطع من الحشيش، علمت أنهـم يشـترونها مـن قبيلة بالصحراء الغربية، ووسط شـد الأنفـاس لم أجـد فرقًـا بـيني وبـين الولـد "أبـو زيـد" عسـكري المراسـلة لـرئيس العمليـات، مرمطون ميري، أو بيني وبين أيـة عـاهرة في المجلـة الـتي بـين يـدي، حاولت الهروب منه كثيرًا لكنه كان يطاردني دائمًـا، وفي النهايـة لم أجد مفرًا من الرضوخ، وكان المقابل بضـعة أنفـاس مـن الحشـيش وإعفاء من الخدمة في جلسة يوم الخميس، حتـى قُـدر لـه أن يـدخل السجن في أحد إجازاته بسبب زوجته، فقد وجد أحـد أصـدقائه في غرفة نومه مع زوجته وعلى سريره ويرتدي بيجامته، وهرب الرجل وأصـاب هـو زوجتـه وانتهـى أمـره بالسـجن، كانـت "سُنسُـن" تذكرني بشيء ما في كل ذلك.

* * *

سرتُ أنا وهي ولا أدري السبب في قولها دعنًا نذهب إلى "خان الخليلي" وحين تطلعتُ إليها متسائلاً، قالت: "الوقت متأخر، جميع المحلات مغلقة ولكننا سنجد كل شيء هادئ هناك، أليس من الأفضل بعض الهدوء".

"أنت أيها الكائن الخارجي أراك متوترًا" هل كنتُ حقًا متوترًا وهل حقًا كل شيء هادئ هناك في خان الخليلي في تلك الساعة.

الحسين على ما أذكر مستيقظ حتى الفجر، وأنا لستُ من رواد الحسين أو خان الخليلي، لا أدري السبب الذي جعلني أوافقها، وركبنا تاكسي، وسألتها؛ ونحن نقترب من كازينو قصر النيل، وكانت الأسود الرابضة على الكوبري مظلمة تمامًا

 كيف تعرفتِ على صلاح؟

ابتسمتْ وقالت: "أنا زميلته في الكلية، لقد تعرَّفنا صباح اليوم، أمام باب غرفة أستاذ البيولوجي، الأستاذ ابن الزانية يريدني أن أذهب إليه في منزله، وحين رفضتُ....

قاطعتها متسائلاً: ولماذا يريدك أن تذهبي إليه؟ تساءلتْ في ذعر لذيذ: "لماذا؟ الكركوب ابن الكركوبة، قال لي مهددًا: هاتسقطي. قلتُ له: أسقط في امتحان، لكن ما اسقطش فيك. وقف يتوعدني، قلتُ له: ها ابلِّغ عميد الكلية".

ابتسمتُ وكررتُ سؤالي في خبث "تُرى ماذا كان يريد؟" واصلتْ حديثها في ابتسامة ماكرة "ابن الكلب يريد الحصول على زمانه وزمن غيره، تعرفتُ على "صلاح" ساعتها وهو يسحبني من ذراعي للخروج بعد أن شتمت الدكتور، هكذا اتفقنا على قضاء السهرة معه وأحضرتُ أختي، كان المفروض أن تكون أنت مع أختي، وأكون أنا مع "صلاح" ولكنه في النهاية فضَّل أختي قائلاً أنك أعز صديق له وأنه يريد أن يبسطه تمامًا، والباقي أنت تعرفه". "صلاح، ابن الذين، ولد حقيقي"، لم أكن في حاجة إلى أن أسألها عن سبب هجومها على الدكتور، كان واضحًا لي أنها لا تقوم بذلك إلا للتسلية كما اعترفتْ هي، سألتني فجأة، "هل تعرف صلاح منذ زمن"، لا أدري إن كنتُ قد أجبتها "صلاح صديق قديم،" وأطرقتُ متذكرًا صديق الصبا، الصعلوك الأكبر، "رحيم"، اختفى هو الآخر منذ سنوات مثلما اختفت "سوسن"، ما اسم المكان الذي يتجمع فيه كل الأحبة.. الجنة؟ إذن ما اسم المكان الذي يفترق فيه كل الأحبة؟

كان التاكسي قد وصل أمام الحسين، دفعتُ حساب التاكسي، وخرجنا من الزحام، محلات الدَّهان والمالكي وغيرهما تضج

بالزبائن، زحام وضجيج وطاولات ممـدة علـى الأرصـفة وفي نهـر الشـارع، وكـان هنـاك عـرب كـثيرون رغـم العلاقـات المقطوعـة والسفراء المسحوبين، وهناك أيضًا الدراويش والصـعاليك والحـواة وبائعو الجلود والأنتيكات والسجائر المارلبورو واللبان، وكان هناك أمريكان أيضًا، وكان الجميع يضحكون، رغم الجو الحار.

قالت لي: ألست جائعًا؟ ولم تنتظر إجابتي اندفعت واشترت بعـض ساندويتشـات الشـاورما، وحـين هممـتُ بـأول قضـمة لاحظـت الدرويش الذي يلتهم بقايا طعام من الأرض، وحين عرضتُ عليـه الساندويتش صرخ في وجهي طالبًا نقودًا فقط والتقط الساندوتش من بين يديَّ واحد من كنَّاسي الشارع ووضعه في فمه دفعة واحـدة وهو يشكرني، بينمـا علَّـق أحـدهم "هـؤلاء لا يأخـذون طعامًـا".

نظَرتْ إليَّ "سُنسُن" بغيظ وهي تقول:

- كيف تتركه يأخذ الساندويتش منك هكذا؟

ابتسمتُ وأنا أردد:

- الجائع يخطف.

همستْ بسرعة في دلال محولة دفة الحديث:

- أنا جائعة.

التزمتُ الصمت، وفي حارة ضيقة خلف مقهى الفيشاوي دخلنا، كان الهدوء عريضًا وبقايا أضواء خافتة للغاية، تتسلل إلينا دون أثر ظاهر لها، ولم يكن هناك أي صوت عدا صوت خطواتنا الرتيب، وكنا نأكل على مهل حين نظرت إليَّ طويلاً وقالت:

- ما رأيك في الحب؟

وكنتُ متعجبًا من نفسي ومن جرأتها، واقتربتْ مني ونحن واقفان تحت شرفة منزل مهجور كأغلب المنازل في تلك الحارة، وحين نظرتُ في عينيها كانت شفتاها قد التهمتا شفتاي وبقايا الطعام داخل فمي، وحاصرتني في ركن ضيق، حينها شعرتُ بأني فريسة سهلة للغاية، وهكذا داخل بيت مهجور له درج متهدم ونوافذ مغطاة بأسلاك شائكة تمرح فيه بعض الفئران، تبادلتُ الحب مع "سُنسُن" وأحسستُ للحظات أنها أقوى مني، ونسيتُ "سوسن" تمامًا وأنا أتعجب من قدرتي على النسيان بهذه السرعة، وفي النهاية رضختُ واجتحتها بحرمان أربعة عشر شهرًا وبضعة أيام، وكانت تتأوه بشكل مدهش، تتأوه في صمت داخل أذني وكانت شفتاي تمسحان صدرها النافر حين طبعتُ فوقه قبلة وأنا أتصبب عرقًا وأتساءل لماذا اختارت هذا المكان بالذات؟ وأحسستُ بعطش شديد، لكنها ضمت رأسي بين نهديها، وكنت ألهث بشدة، نهضتُ

وأنا أدفع يديها بهدوء، تركتني فأسندتُ ظهري للحائط بالقرب من الدَّرج المتهدم، قلتُ لها "نحن من مريدى السراية الصفراء" ضحكتْ قائلة "قصدك السراية الحمراء" ضحكنا، قامتْ بعدي بلحظات، وسحبتْ شيئًا ما من على الأرض إلى وسطها بعد أن انحنتْ قليلاً ولم أدرك كنه هذا الشيء في الظلام، وبعد أن انتهت خرجنا من المكان وهي متعلقة بي، أما أنا فكنت أشعر بأن ما حدث لم يكن طبيعيًا، كان هناك شيءٌ ما غير عادي، وطرحتُ أخيرًا الفكرة عن بالي جانبًا. وعدنا نسير في الطريق الساكن المظلم وفي النهاية تركتْ ذراعي وسارت بجانبي.

لم تنطق بحرف واحد طوال الطريق حتى عدنا إلى منزل "صلاح" وهناك ألقيتُ بنفسي فوق المقعد، وتناولتُ سيجارة أشعلتها بينما راحت "سُنسُن" في نوم عميق وهي ممدة على المقعد، بينما أخذتُ أنا في رسم دوائر في الهواء بدخان سيجارتي، أُطالعها وهي تتحول لخيالات عديدة في سقف الحجرة الزرقاء أسترجع ما حدث، وحينها أدركت الحفرة العميقة التي حفرتها لنفسي وسقطتُ فيها، "سُنسُن" تجسد سقوطي اللانهائي، ضلالي الأبدي، حيرتي الطاغية، لم تحتاج غير ليلة، ليلة واحدة، لتتبرأ مني "سوسن" ويتبرأ مني العالم، أي شرف بعد ذلك يمكن أن أتحدث عنه؟ وأي انتظار

انتظرته؟ ماذا فعلتُ لكي يحدث لي ذلك، فلأنكوي بنيران حيرتـي وغبائي وغضبي، ولأهيم بعد ذلك، منذ تركتها وأنا أهيم، متأكد أنا الآن أنني أنا الذي تركتها دون كلمة مني، فلمـاذا بحثـي عنهـا الآن، لقد اسـتراحتْ مـن وجـودي الغـبي وتـركتني لتهويمـاتي وحيرتـي وانشطاري، وسأمي من ذاتي ومن كل شيء.

تطلعتُ لـ"سُنسُن" وهي نائمة تترددُ أنفاسـها في هـدوء كمـلاك، ولم يكـن هنـاك أدنـى صـوت في الـداخل، وكـان الفجـر يقـترب، فألقيتُ برأسي فوق المقعد وعيناي معلقتـان بـالفراغ الـدامي فـلا تنغلقان أبدًا، وفجأة أيقظني "صلاح" في المسـاء، تطلعـتُ إليـه في تساؤل ثقيل، قال لي بأني نمت النهار كله، كـأن النهـار لم يـأت في هذا اليوم أبدًا.

* * *

صممتُ على ركـوب قطـار الصـحافة، وفي عـزِّ الليـل كنـتُ أنـا و"صلاح" في طريقنا إلى الإسـكندرية، وأصـر "صـلاح" علـى أن يناديني بالمجنون في تلك الليلة، وظل يسألني عن السبب في اختياري لهذا الموعد، وقلت له أخيرًا:

- دعنا نجرب.
- أنا مجنون مثلك، لابد أني مجنون مثلك، ألم يكن من الأفضل أن ننتظر الصباح؟

أفهمته أن الخطابات التي معي لا يجب أن تنتظر أكثر من ذلك.

في محطة مصر نزلنا وركبنا تاكسي إلى حي "غيط العنب" حيث يسكن "ميشيل". كانت الإسكندرية قد استيقظت، ولكن الطرق التي سلكناها كانت تمتلئ بأكوام هائلة من القمامة المنتشرة في أغلب الأنحاء، كنا في ظهر الإسكندرية حين دخلنا الشارع وحين وقفنا أمام المنزل أخيرًا تساءلتُ "هل يمكن أن يكون هذا منزلاً لضابط؟" وتذكرتُ فيلات حي المهندسين التي استولى عليها الأحرار في الستينيات، المنزل يبدو كشبح عجوز على وشك التلاشي ورائحة عفونة غريبة تدب في المكان، ولاحظتُ العجوز الملقى على الأرض بجانب المنزل يعف عليه الذباب، وأخيرًا صعدت الدرج المتآكل الذي كان يهتز تحت أقدامي وخُيِّلَ إليَّ أنه سيتحول إلى أنقاض وأني سأُدفن تحته وسأموت فطيسًا هنا، وأن كل هذا سوف يتم في لحظات، تاركًا "صلاح" الذي فضل الانتظار في الأسفل أمام المنزل، فكرتُ بالخروج ولكني أمسكت وواصلت الصعود.

وقفت أمام الباب متردداً حين فتحته امرأة شابة فجأة وقالتْ وعيناها الخضراوتان مسلطتان على وجهي: "أهلاً بك" عيناها تشبهان عينيّ "ميشيل" واسعتان يترقرق فيهما محيط، لا أدري كيف عرفتْ أني من طرف "ميشيل" بهذه السرعة، هل للخطابات التي كنت أمسكها في يدي أم لشيء آخر، وأيقنت أن معظم المصريين مكشوف عنهم الحجاب.

أوسعتْ لي جانبًا من الباب ودعتني للدخول قائلة:

- تفضل، تفضل، أرسلك "ميشيل" أليس كذلك؟، أنا أخته "ناني"، اسمي "ناني"، تفضل، تفضل.

كانتْ تكرر كلماتها كأني لم أسمع وتعيد تكرارها في حماس كأنها تقولها للمرة الأولى، وأدركت أن بها مسًا ما من "سوسن"، ولكنها كانت أكبر سنًا منها.

على الحائط في صدر القاعة ذات المقاعد القديمة كانت صورة المسيح وتحتها بعض عبارات الإنجيل ثم عبارة كبيرة أعرفها جيدًا تبدأ بـ "من ضربك.. ". أفسحتْ لي مكانًا على مقعد وطبطبتْ عليه في حنان ودعتني للجلوس ومن خلفها دخلت امرأة أخرى أكبر سنًا لها نفس الملامح، عيناها المتسامحتان وفمها الدقيق وشعرها الأحمر، نهضتُ واقفًا ولكنها احتضنتني وهي تبكي قائلة:

 أرسلك "ميشيل"، أنت مثل "ميشيل"، أنا مثل أمك.

مسحت أنفها الأحمر وعادت تقول:

 اقعد، اقعد،

شعرتُ بالحرج للحظات، لكن طيبتها ورقتها أزاحت عن صدري هذا الإحساس سريعًا، دعتني للجلوس مرة أخرى، قلتُ لها إن "ميشيل" بخير وناولتها الخطابين، واحد لها والآخر لخطيبته ورجوتها في تسليمه لها بسرعة، ولاحظتْ عيني أخته المعلقتين بي وقلتُ لها إنه بخير، وأنه سوف ينزل قريبًا، هزت رأسها وقالت:

 "دانيال" قال أيضًا أنه سينزل قريبًا، ومع ذلك لم ينزل أبدًا،

تنحنحتُ قليلاً، وقد وقف سؤال في عيني عن "دانيال" فأخذتْ "ناني" في تفسيره:

 "دانيال" أخي الصغير ذهب للعراق منذ ثلاث سنوات، ولم يعد، في آخر خطاب قال بأنه سيأتي قريبًا، ولكنه لم يأت، لا ندري السبب.

تهيأتُ للخروج، لاحظتْ الانزعاج الشديد على وجه الأم وقالتْ في سرعة:

 وحق المسيح لن تخرج، يجب أن تفطر معنا، أنت تعبان من السفر، يبدو عليك ذلك.

تعللتُ بصديقي "صلاح" الذي ينتظرني في الأسفل، كانت "ناني" قد أحضرتْ قطعة من الجاتوه الرخيص، بينما أقسمتْ أمها بالمسيح مرة أخرى بأني يجب أن أفطر ولكني صممت على النزول بدعوى أن وراءنا منازل كثيرة يجب أن نزورها في الإسكندرية، وكنتُ أحيط كذبتي الباهتة بحركات صادقة وأنا أتعجب من نفسي، وتركتني أخيرًا بعد أن وعدتها بأني سأزورها في المرة القادمة وبأني سأفطر وأتغدى أيضًا، ابتسمتْ واهتزتْ شفتاها مرة أخرى وهي تودعني، أدركتْ أني أكذب للمرة الثانية، وإلا بماذا كنت أعلل ابتسامتها وبأني عارٍ تمامًا داخل عينيها الواسعتين، قالتْ لي وأنا على الدرج أترنح:

- أريدك أن تقول لميشيل أن خطيبته قد انقطعت أخبارها عنًّا بعد أن تعرفتْ على "بطرس سمعان" القادم من الإمارات، "بطرس سمعان"، هه.

وناولتني خطاب خطيبته مرة أخرى، ولا أدري لماذا أخذته منها، هل كنتُ أريد أن لا أبدو كاذبًا في نظرها؟ لا أعرف، أخذته وأنا أهبط الدَّرج في هدوء ودسسته في جيبي وقالتْ لي مرة أخرى من أعلى الدرج:

- سلم لنا عليه كتير، كتير قوي.

وعادت رائحة العفونة الشديلة تواجهني وتناهى لسمعي أصوات حيوانات، ووجدت "صلاح" يقف بعيدًا، فاتجهت إليه، قال لي:

- هل تعلم أن هذا المنزل الذي خرجتَ منه الآن كانت تسكنه قبل صاحبك هذا امرأة يونانية وأن الورد كان يملأه.

- ورود؟ أنا لم أشم سوى رائحة عفونة.

قال: هذه حظيرة الخنازير المجاورة للمنزل.

- "خنازير، ورد"

تبسمت؛ فنحن المصريون لنا قدرة غريبة على إفساد كل شيء، وتحدثنا قليلاً عن ما حدث في الأعلى، وركبنا الأتوبيس مرة أخرى إلى الأنفوشي حيث قال وهو يلقي برأسه إلى الخلف:

- سنفطر على مقهى على البحر هنا.

ولاحظتُ في الأتوبيس بحر الإسكندرية للمرة الأولى، حكيتُ لـ"صلاح" عن خطيبة "ميشيل"، شَخَرَ "صلاح" وضحك قائلاً:

- كل النساء هكذا، عصفور، عصفورين، ثلاثة في اليد، وألف على الشجرة.

أخرجت من جيبي الخطاب، كدتُ أفتحه ولكني أدركتُ في تلك اللحظة كم سأكون خائنًا، فمزقته إلى قطع صغيرة وألقيتُ به من نافذة الأتوبيس فتفرقتْ أجزاؤه في الهواء، وتوزعت على أرصفة

الإسكندرية تحكي حكاية صديقي الضابط "ميشيل" الـذي تركتـه خطيبته، وذهبت لـ"بطرس سمعان" العائد من الإمارات.

غـطَّ "صـلاح" في النـوم بجـانبي فجـأة وكانـت عينـا "سوسـن" معلقتان في السماء عبر النافذة تشقان طريقهما إلى قلـبي، مخترقتـان النور والظلال الجارية، حين فتح عيناه فجأة قائلاً وهو ينهض:

 وصلنا.

جلسنا على المقهـى وبـين أيـدينا ساندوتشـات الفـول والطعميـة، وطلبنا الشاي والشيشة، كان هواء البحر يضـرب وجوهنـا فنفيـق، وقال "صلاح" كلامًا كثيرًا عن "سُنسُـن" وأختهـا، وحـين سـألني لماذا خرجنا، لم أجد ما أجيبه به، وعلى الشاطئ البعيد نقل لنا الهواء صيحة واحدة قاسية، لاحظنا بعض رجال الشرطة وزحام، تركنـا مـا بأيدينا وركضنا. كانت بنتٌ في السابعة عشرة ترتـدي مايوهًـا مـن قطعة واحدة – لماذا الإصرار على البحر في هذا الجو البارد – هـذه المرة الأولى في حياتي التي أرى فيهـا ملاكًـا قـد مـات، ولم أكـن قـد رأيت ملائكة تموت من قبل، حتى أمي حين ماتت لم أرها؛ إذ كنـت بتلك النقطة الصفرية، وكانت بالمستشفى ولم يقـل لـي أحـد إنهـا ماتت إلا بعدها بعدة أيام ودفنتْ في ليلة واحدة ولم يشعر بها أحد،

ولا أدري إن كنتُ قد بكيت، أم جفتْ عيناي من الدموع. شعرتُ بأنني متجمد تمامًا، وأننا تُركنا هناك في هذا المكان البعيد القاصي بدون إحساسات، فلماذا ذهبنا نحن الستة عشر فردًا خريجي الجامعات في تخصصات نادرة إلى تلك النقطة الصفرية التي تقع خارج التاريخ لنقوم بأعمال غريبة لا تحتاجنا، لنموت بعد أن كلَّفنا الدولة الكثير، ذهبنا لنرى جيشًا لا يُقاتل، خدعته عيناه فأصبح عدو نفسه. ماذا ذهبنا نفعل هناك؟ ترى هل كان نوعًا من العقاب؟ تمنينا جميعًا لو أننا في حرب حقيقية، لو أننا نقوم بشيء يفيد هذا الوطن، لقد شككتُ دائمًا بأن ما حدث لم يكن وليد الصدفة، لا أدري، ماتت أمي، ولم أرها ولم أرد على خطابات "سوسن" رغم انتظاري لها ولهفتي عليها، وفي النهاية انقطع الحبل السُّري الذي كان يربطني بالعالم، غابتْ أخبارها ككل شيء يغيب، وكنت أحيانًا أشعر بأنها كالشمس في داخلي لا تغيب أبدًا، تغرب لتشرق في دورة أبدية لا تنتهي.

.

عدنا مرة أخرى للمقهى وجلسنا أنا و"صلاح" يتطلع كل منا للآخر دون أن نستطيع النطق بكلمة واحدة، ولم يكن الكلام يُفيد،

ولم يكن الصمت يفيد، لملمنا الجريدة وبقايا الطعام وألقيتُها في سلة المهملات، كأني أُلقي بكل ما في داخلي فيها.

عدنا للقاهرة بعد ثلاث ساعات دون أن نبيت ليلتنا بالإسكندرية كما اتفقنا.

* * *

سألني أبي وهو يحلق في وجهي بنظرات حانية أرى فيها عيون أمي التي رحلت:

 هل ستعود إلى وظيفتك؟

قلت له وأنا أُداري بعضًا من حيرتي:

 تعاقدتُ على العمل في الكويت منذ عدة أيام ولا أدري إن كنت سأذهب أم لا.

تركني بضعة أيام دون حديث، حيث أصحو لأنام وأنام لأصحو وأجلس على المقهى أتطلع إلى الوجوه المجهدة ولمعة العرق عليها دون أن أفعل شيئًا، أُقابل "صلاح" و"سُنسُن" وأختها في المساء، قال لي أبي: يجب أن تسافر لقد جهزتُ لك جواز السفر وكل الأشياء وعليك أن تتذكر إخوتك.

وما لم أقله أني كنتُ قد قررت السفر ليس من أجل أخوتي وليس من أجلي لكني كرهت كل شيء فجأة.

* * *

سرت في كل الشوارع التي مشيتها أنا و"سوسن"، أبحثُ عن خطواتها، أتلمس عبيرها، أُحلّق في ظلها المنحوت في الهواء، أتحسس الهواء علَّ شيء منها تكون قد تركته هناك، ولكن كل شيء جامد، ميت، يعكس وحدتي اللانهائية، لم يكن هناك أي شيء، لقد اختفت "سوسن" تمامًا دون أدنى أثر لها سوى بقلبي.
قالت لي أختي الصغيرة وهي تضحك ضحكتها البريئة: أريدك أن ترسل إليَّ بساعة يد وبعض الإيشاربات، تطلعت إليها ولاحظت أن قامتها قد زادت، وبدأت تتحول إلى امرأة، وبدت الدهشة في عيني، فابتسمتْ، وألقت بنفسها في حضني فجأة.
لم يطلب أحد آخر منهم شيئًا وقال "صلاح" إنه سيداوم على الكتابة لي، ولكني كنتُ أشعر أن هناك شيء ما داخلي، شيء مقتول ومسفوح دمه على إسفلت المدينة الأسود، هل هو قلبي أم خطواتي مع "سوسن"؟ طالما تساءلت لمن سأترك تلك الخطوات

ونظرات العاشقين ولحظات احتضان الأيادي الصغيرة؟ لمن سأترك كل تلك اللحظات؟ وأيقنت وأنا أغادر أني أتركها للفراغ والريح تعبث بها وتمحوها، ولن يبق هناك بعد ذلك أي أثر لها.

في ليلة سفرى بكت "سُنسُن" طويلاً حتى انتفخت عيناها، أما "صلاح" فجلس في استرخاء شديد، ولما سألتها: لماذا تبكين؟ قالت: تعودتُ عليك.

ضحكتُ في خفوت وقلت لها في بلاهة: سأعود. قالت: لن تعود.
هل تعلقتْ بي "سُنسُن" إلى هذه الدرجة؟ غير معقول؛ فهي تعلم علم اليقين بأنه لا مكان لها داخلي، قلتُ لها هذا في برود، وأحيانًا أخرى أكرره في شفقة، فلماذا البكاء يا "سُنسُن"؟
أشعلتْ لي سيجارة وجذبتْ منها نفسًا ووضعتها في فمي وعادت تقبلني من جديد، قال "صلاح" وهو يزجرها: خلاص يا روح أمك، بح، خلاص، لن تقلبيها محزنة. تطلعتُ إليه في عتاب، لكني أحسستُ أنها صادقة، أما أنا فقد كنت تعودت على كذبي.
أنا الذي أمضي أربعة عشر شهرًا وبضعة أيام في الصحراء الواسعة محبوسًا، وتركته حبيبته بعد أن ملَّتْ من صمته، وتركته أمه دون أن يراها، وألقى بخطاب ميشيل أشلاءً في شوارع الإسكندرية

لتحرق العيون فتعرف ما الذي يفعله القادمون من الخليج، أهلاً بعد ذلك بالجحيم نفسه.

ولم أسأل نفسي كثيرًا عما إذا كنتُ سأفعل مثلما فعل "بطرس سمعان"، لقد انتهت المسألة كلها، بعد أن أشعلتُ النار فيما تبقى من رفات عقلي، أتحسس ذاتي من الداخل، أطمئن على تلك الجثة الهامدة الداخلية التي تتفحم في بطء فوق نار حيرتي وثورتي الأبدية، في تلك الليلة شعرت بأني أموت، كنت أنتزع البقية الباقية من كبريائي، فإذا كان كبريائي قد تم انتزاعه هناك في تلك النقطة الصفرية في الصحراء التي ذهبتُ إليها دون إرادتي، فلأنتزع الباقي منها طالما أنا ذاهب بملء إرادتي، وأهلاً بعد ذلك بكل خسة الجنس البشري الذي أنتمي إليه، وأهلاً بشياطين الدنيا وزبانيتها، أعلم أني ذاهب إلى هناك بعد أن أقمت حداد عقلي وتركت روحه بلا صلاة.

(٣)

العيون المفتوحة

إذا لم تكن تدري من أين جئت
فليس من المهم أن تعلم إلى أين أنت ذاهب

هبطت الطائرة في مطار الكويت، ذلك الهبوط الرخو، قلبي يدق في عنف، لا أحد في انتظاري، المجهول وأنا، أسير على بلاط له بريق، ضحكات مختلطة بصراخ أطفال، نساء سمينات، ورجال يهتزون في ملابسهم اللامعة، أتحسس بنطلوني الجينز المتقرح هنود وفليبينيون وصعايدة وأمريكان، الصعايدة يسيرون في جماعات لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة أفراد، الجميع يبدأ في الركض، فقط الأمريكان هم الذين لا يركضون، ومع ذلك خرج الأمريكان سريعًا لا أدري كيف، لاحظتُ الابتسامات المتبادلة بينهم وبين العساكر والضباط، لم أجد في استقبالي سوى النظرات المتشككة للضابط الصغير، ملابسه الرمادية وحذاؤه اللامع، وشاربه العريض، كان الطابور طويلاً

بشكل غريب وتساءلتُ هل هجر المصريون مصر، منذ ركبتُ الطائرة وأنا أشعر بأني داخل حضانة لجنين ولد قبل ميعاده، معرض فيها للأشعة البنفسجية وفوق البنفسجية وأشعة إكس وأشعة كشف الروح ومسح الجسد وتعطيل الدماغ، وكي العروق وكل أنواع الإشعاعات، حضانة للميلاد، أم حضانة للموت، تم دفعي للخروج، قال الجميع بكل لؤم، خروجك فيه حياتك، بينما كنتُ أعلم أني يجب أن أتسلق السلك الشائك عاريًا أتوجس، موتي ينتظرني فوق كل شبر من هذه الأرض.

لاحظت أن مضيفات الطائرة من جنسيات مختلفة منهم الهندية والمصرية والكويتية واللبنانية والإنجليزية، وأجملهن هذه الباكستانية الفارعة التي تعلقتُ بعينيها الواسعتين الجميلتين، زميل المقعد النائم بجواري يسيل على شفتيه لعاب غريب ينحدر على جانب ذقنه، أشعر بأن وجهه كله يسيل، حتى لم تبق فيه ملامح، كل شيء فيه مطموس، حتى خلته هو والمقعد كتلة واحدة، كتلة من قماش ودم ولعاب، وكان الكثيرون نائمون، وأدركت في تلك اللحظة أني الوحيد الذي لا ينام أبدًا، مفتوح العيون دائمًا وبشكل لا يطاق وأقول لنفسي ها أنت تركت القطار والغبار، وكلاب السكك وعربات البيجو التي كانت تحرث الأرض باتجاه "السَّلوم" محملة

بشباب الفلاحين والصعايدة، ورأيت أطفالاً بينهم وأيضًا عواجيز ونساء، كنت أراهم بالمئات والألوف في "سيدي براني"، ماذا كانوا يفعلون وإلى أين هم ذاهبون؟ إلى "ليبيا"؟ عيونهم جميعًا ممتلئة بأحلام، يرتدون طبقات من جلابيب كثيرة منتخفين بأوهام الثراء، كم رأيتُ من عربات تعود بنعوش، فهل رأيت نعشك بينها يا غبي يا بن الغبي لتقرر الذهاب إلى الكويت، قُضي الأمر.

هيا أغمض عينيك، أمي كانت تردد على مسامعي وأنا صغير دائمًا عبارة وحيدة "لماذا لا تغمض عينيك يا حبيبي وأنت نائم" هل كنتُ كذلك، في تلك الليلة البعيدة مات "عبد الناصر" قال أبي: لماذا تركنا ناصر في مواجهة كل هؤلاء، يحدثني وهو يظن أني أفهم، لا أدري لماذا أصر على حفر هذه الكلمات في رأسي؟ أمي قبل أن تموت لم تهتم كثيرًا ولم تقرأ جرائد طوال عمرها، وتشيح بيدها إذا حدثناها في ذلك، وماتت وهي لم تعرف الفرق بين الملك "فاروق" والرئيس "عبد الناصر"، أو من أتى حتى بعده، وأذكر أنها قالت ذات يوم: "رئيس، ملك، وزير، كلهم شيء واحد"، سحبني أبي من يدي وسرنا في جنازته، ركبنا القطار حتى محطة الجيزة، وهناك ضعتُ وسط الناس وبعد عدة ساعات عثر عليَّ وأنا جالس فوق

الرصيف في الليل أبكي وعيناي مفتوحتان، احتضنني وخبأني تحت معطفه من البرد، لكني كنت قد أُصبت، واعتقدت أن عينيَّ ظلتا مفتوحتين من يومها، فلم يلفتْ نظري أحد ما لذلك إلا بضعة مرات قليلة، وكنتُ أنا أنسى، و"سوسن" لم تقل لي أبدًا أن عينيَّ مفتوحتان دائمًا، هل كنت أخاف شيئًا ما؟ أم أن هناك مرضًا ألمَّ بي فتصلبت جفوني على الوضع المفتوح، خوفًا من أن تُسرق مرة أخرى؟ ورغم عينيك المفتوحة فقد كانت تتم سرقتك كل يوم وكل ساعة. لم أرغب في الذهاب إلى طبيب ليفتش داخلي عن السبب في ذلك.

فتش شرطي الحقيبة بعناية وقلَّب الضابط جواز السفر الأخضر وعاد يتفحصني من جديد، عيناه تمتلئ بشكوك واتهامات لا تحصى، وفي أركانها تختفي عبارات السخرية واتهامات بشحاذة دولية، لقد انتهينا من الشحاذة المحلية فلم يتبق لنا سوى الشحاذة الدولية، تَرَكَنا النظام نقوم بالشحاذة بدلاً منه، سنؤكل يا أولاد الكلب وأنتم هناك تضحكون، أشحذ أنا ليقوم بطل الحرب والسلام بالتصوير في مجلة التايمز الأميركية مع كلبه الوولف وحذائه الأبيض وشورته الأبيض وعصاته التي يهش بها علينا.

أشار لشرطيين فسحباني إلى حجرة داخلية حيث تعرضتُ لتفتيش ذاتي، حاولت إفهامه أن شحاذًا مثلي لا يمكن أن يخفي شيئًا داخل ملابسه البسيطة، ولكنه أعطاني قفاه في حلة وتركني لهما، ها أنا أقف بعيدًا بمئات الأميال وحيدًا هذه المرة أخلع جميع ملابسي دون أن أنطق ودون أن أعترض، كانا يفتشان في كل شيء يقلبانه عدة مرات، بحثا تحت لساني وداخل الحذاء أزكمتهما رائحة قدمي، وبين فخذيَّ وكنت أنا ابتسم، وكانا يضحكان وهما يشيران "للفانلة" الذائبة المهلهلة من على الصدر ولم أدر أنها ذائبة إلا في هذا الوقت فضحكت معهما، وفتح أحدهما علبة سجائري ومزقها أمام عيني باحثًا عن الحشيش والأفيون الذي عادة ما يخبؤه أمثالي من المصريين في تلك العلب، وفتحا دفتر المذكرات الصغير الأزرق وهو الشيء الباقي لي من "سوسن"، وكنتُ خائفًا من أن يمزقاه ولكنهما ألقياه على الأرض في إهمال بعد أن قرآ بعضًا من سطوره وضحكا في سخرية، انحنيت والتقطته في لهفة فأنزل أحدهما السروال الداخلي لي ليرى ما بداخله فاعتدلت سريعًا، أمرني بإنزال اللباس، تطلعت للضابط، أمرني هو الآخر بخلعه، وشبح ابتسامة متشفية تلوح على وجهه، كدت أصرخ ولكن الصرخة التصقت بسقف حلقي، وكنت أشعر بالحرج لكني نطقت

أخيرًا بأن ذلك انتهاك لحريتي لكنهما استمرا فيما هم فيه دون أن يعيراني التفاتًا، هاجمني ضيق فجائي فلم يكن معي نقودًا لأشتري علبة أخرى، ولم أكن أدري ماذا يمكن أن يحدث لي في الخارج، وأخيرًا خرجتُ في صحبتهما مع الضابط الذي اعتذر في جمود قائلاً بأن اسمي تشابه مع اسم شخص مطلوب القبض عليه وأشار لي بأن أخرج، حملت الحقيبة ولم تكن تحتوي سوى على خطابات لبعض المصريين تم فتحها جميعها وتساءلت في حيرة عما يمكن أن أقوله لأصحابها، كنتُ قد تعودت على النظام والطاعة هناك فلم أعترض كثيرًا، فالألوان أصبحت متشابهة؛ الكاكي والأخضر والرمادي، قابلتُ المضيفة الباكستانية على الباب نظرتْ لي ولم تبتسم، وتركتْ لي ذكرى وحيدة هي نظرة عينيها الواسعتين الممتلئتين ببرود لا نهائي في طائرة مجهولة.

* * *

لمحتُ يافطة معلقة خارج صالة الجوازات تشير إلى مكان تجمع المدرسين المتعاقدين، ووجدت آخرين اندسست بينهم، أغلبهم في مثل سني عدا ثلاثة أو أربعة كانت أعمارهم بين الأربعين

والخمسين، واحدٌ فقط يبدو أنه تعدى الخمسين وكان لا يفتأ يشكو التعب والوقفة المرهقة، ظننت لوهلة أننا ذاهبون لمعتقل واحد في نفس اللحظة، كمجموعة من الجرذان تندفع فجأة لتلقي حتفها من فوق جرف عالٍ دون سبب معروف، وأعود أقول: ما هذا اللغو، هل أصبحتُ مجنونًا؟ ولم يجبني أحد، لقد وقَّعت العقد بكامل إرادتي ولم يدفعني أحد لذلك وتركتُ وظيفتي وربما تركتُ "سوسن" و"سُنسُن" و"صلاح" وأبي وجميع من أعرفهم لذلك، فما معنى الانتحار، وكنت أظن أحيانًا أني مجنون حقيقي، ضحكتْ سوسن بشدة ذات يوم وقالت لي: "ما الفرق بين المجنون الحقيقي والمجنون غير الحقيقي؟ سواء كنتَ هذا أو ذاك فأنا أحبك، مجنونة بك". لم أكن أدري ما الذي تجده فيَّ مختلفًا، كانتْ تعترف بحبي دائمًا، حتى مللتُ هذه الكلمة وربما مللتُ الحب نفسه، ولكن في تلك اللحظة كنتُ أحتاجها بشدة، حين كانت تسير بجانبي وكانت أطول مني بسنتيمترات قليلة مرتدية حذاءها الواطئ وكانت موضة الأحذية الرجالية هي الكعب الإسفنجي العالي، فكنتُ أظهر أطول منها، وكنتُ أشعر بأننا نكذب على أنفسنا وعلى الآخرين وكانت تقول لي دائمًا: "دعك من هذا، أنا أحبك فلا تأبه". ولكني كنت أظن دائمًا أننا نكذب، هل هذا هو السبب وراء

اختفائها الفجائي، ولما لم تكن هناك إجابة في تلك اللحظة فقد ابتلعت كلماتي وأخذت ألوك صمتي، وأنا أدور بين الأسباب والمسببات والعلل والنوايا والرغبات حتى لم يبق أمل في أي منها، أدور في حلقة مفرغة لا نهاية لها دون أن أعثر على سبب واحد قد يريح البال ويبلل الشفاه الجافة التي على وشك التكسر، ولكني لم أفكر أبدًا بأنني قد أكون السبب.

لاحظتُ أفواج الهنود والباكستانيين والبنجلاديش، ملامحهم واضحة، يقفون في طوابير طويلة، أغلبهم من النساء، وأدركت أنهم يأتون للعمل هنا كخدم، أو في وظائف دنيا، ولاحظت بعض النساء اللاتي يبكين وهن يتحدثن مع كفيلهن، كن يحاولن أن يثنينه عن تسفيرهن، والرجل يبدو كقطعة من الصخر الصلد ولم يتدخل أحد.

تقدم منا رجل ذو رأس ضخم وجسد هزيل يرتدي نظارات وغترة وعقالاً ذو ملامح طيبة للغاية، وبعد أن فحص أوراقي وقرأ العقد انقلبتْ ملامحه بشكل فجائي وقال لي: "أنت راعي مكتبة وليس لك الحق في سكن أو الانتقال لدار الضيافة"، وأشاح بيده وواصل قائلاً "دبِّر حالك". ولم أفهم ما الذي يقصده تمامًا ما معنى راعي

مكتبة، لكْنَتُهُ غريبة نوعًا ما بالنسبة لي، اقترب أحدهم مني قائلاً: "ولا يهمك، تركب معنا السيارة وتنزل في الكويت وهناك يمكن التصرف"، حاولتْ إفهامه أني لم أنظر للعقد وأني لم أقرأ بنوده، وضربتْ بالطاعة عرض الحائط وقلت له: "إني على استعداد أن أعود في نفس الطائرة التي أتيت بها"، هز رأسه ولم يجب وقال: "سوّ ما تريد"، قلت له في لهجة حاسمة مهددًا: "إذا لم تكن تستطيع أن تفعل شيئًا فأتني بأي مسئول آخر، لن أتحرك من هنا، إما الطائرة أو السكن"، نظر إليَّ في شك ونادى على أحدهم: "يا أبو جاسم". فأقبل آخر وكان سمينًا أسود البشرة عريض الأنف حركة أقدامه على الأرض مكتومة غليظة، وتبادلا حديثًا قصيرًا وفهمت أنهم يتحادثان بشأن عقدي، وأخيرًا نطق الرجل الأول قائلاً: "سنأخذك معنا، في دار الضيافة وغدًا تدبر حالك"، سكتُ ولم أنطق، وتذكرتُ الموظف المصري في لجنة التعاقد حين قلتُ له أني أريد قراءة العقد قبل أن أوقعه، رماني بنظرة نارية وقذف أمامي بنسخة أخرى من العقد وهو يهمهم "فقري"، ابتسمتُ وتناولت القلم من يده ووقَّعت دون أن أقرأ شيئًا.

حين خرجتُ من باب المطار خيل إليَّ بأن هناك من ألقاني في الجحيم، وأن ما أحس به ربما يكون أسوأ من جهنم، درجة الحرارة

فوق الأربعين، والرطوبة فاقعة، كبستْ أنفاسي وطبقت على صدري، أما زجاج المطار فقد كان يخفي ما يمكن أن يكون بالخارج، خرجتُ من البوابة وقفلت راجعًا من الباب الآخر والجميع خلفي، وارتفعتْ ضحكات الجميع قلت لهم لا يمكن أن نلقي بأنفسنا من فوق الجرف في هذا الجو، سننتظر للمساء، انزعج الرجل ذو النظارات عريض الرأس وقال: "ايش فيه؟" حدثه أحدهم بالأمر، ضحك حتى ظننت أن قلبه سيتوقف وقال: "هيا هيا يمكنكم أن تتحركوا الآن، الباص يقف أمام المطار، لا تؤاخذونا"، وكنا ننشوي بنار الكويت في الخطوات العشر الأولى حتى باب "الباص". وكانت المفاجأة الثانية اكتشافنا أن الباص غير مكيف، وهكذا تم شيّنا وسلقنا بعد تجريدنا من ملابسنا بدعوى الشيٌ على العريان، خلال ساعة حتى دار الضيافة، وخفف عنا بعض الشيء السائق الفلسطيني الذي أخذ يلقي علينا النكات ويسأل عن الأحوال في مصر.

في المساء كان لابد من خروجي، حيث كنت أحمل خطابًا لابد من توصيله تلك الليلة بمنطقة "الشويخ"، همتُ فيها حوالي الساعة حتى وصلت لصاحب الخطاب وكان قريبًا لأبي، وحين دخلت

سكن العمال الذي يقطنه قابلني اثنان من الصعايدة يبتسمان في وجهي، بعد لحظات كنتُ جالسًا على سرير مصنوع من صناديق الكولا والبيبسي وفوقه حاشية إسفنجية في غرفة مصنوعة من الصاج والحجارة الأسمنتية، وكان بها ثلاجة قديمة وتليفزيون وفيديو، وأصرَّ قريب أبي على أن نتعشىَّ، وأكلنا فراخًا مشوية وكبابًا وشربنا مشروب "الفيمتو والشاني"، ونهضت أخيرًا راغبًا في العودة، أصرَّ مرة أخرى على أن يقوم بتوصيلي، وفي سيارته الشيفروليه أوصلني للسكن، وحدثني طول الطريق عن ما يجب أن أفعله، ونصحني بتحويل مرتبي أول كل شهر وذكر لي أشهر الصيارفة وعرض عليَّ الإقامة معه إذا أردت لحين توفير سكن ولكنني أفهمته بأني لن أتنازل عن موضوع السكن، وقال لي "محمود" في النهاية: "نورت الكويت" وكان يضحك وكرشه الكبير يهتز في عنف وأشار إليه قائلاً: "هنا منحني الرخاء" فضحكت في بلاهة، وأخيرًا هبطت أمام دار الضيافة وكانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، وكانت الأضواء مطفأة، يعم السكون كل الأشياء، إلا أنا فقد كنت أتخيل أنني أكبر حمار عرفته الكويت، حين حكيت لـ"محمود" ما جرى في المطار، ترجرج كرشه وهو يضحك قال: "أفق، هناك الآلاف الذين يتمنون

لو يحصلون على ربع عقدك في الكويت، المئات ينامون أمام السفارات الخليجية، احمد ربنا"، تفرست في وجهه محاولاً إدراك الموقف، لكني كنت قد أدمنت اللامبالاة، فقلت: "فليأخذ هؤلاء الآلاف هذا العقد ويعطوني ما تم سرقته مني". ضحك وقال: "اذهب إلى الشارع، واصرخ في الناس، من يريد عقدًا للكويت، وستجدهم"، وقطع جزءًا من صدر الدجاجة ووضعه في فمه دفعة واحدة، وأمر أحد الأخين بوضع شريط المغربية "سميحة سميح" في الفيديو، صوتها عميق، نظرت في عينيه فوجدته يمارس معها الجنس في خياله، وهو يقول "صوتها جاي من تحت"، ابتسمنا جميعًا.

* * *

تسللتُ إلى غرفتي وألقيتُ بجسدي فوق السرير، حاولت إغلاق عيني وكان صدري مقبوضًا، وأجهزة التكييف تعمل بشكل جيد. نهضتُ في فزع في الثالثة فجرًا على صرخة، خرجتُ من باب الغرفة، كان هناك صوت أنين منبعث من حجرة ما في الممر وحين وقفتُ فيه أدركت أن الشقة التي بجانبي هي التي يخرج منها هذا الأنين، دفعت الباب وكان مواربًا، وكنت أدعك عيني، كان الرجل

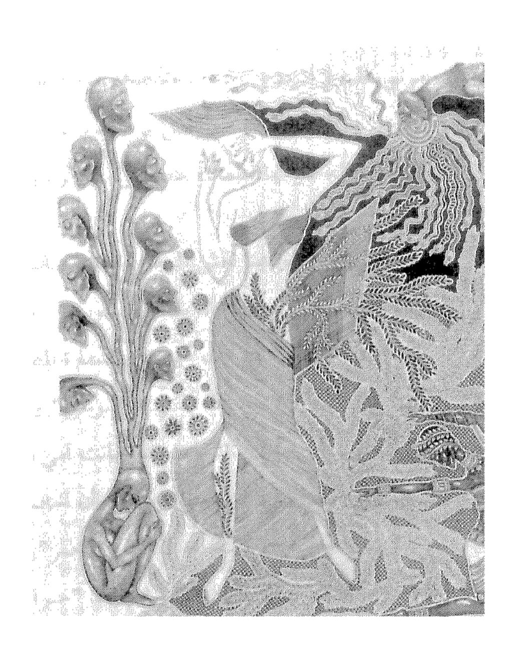
الكبير السن الذي رأيته في المطار مكومًا بجانب الباب، وكانت الدماء تغطي صدره، وتناثرت على الأرض كتل من الدم القاني، وحين جلستُ بجانبه أدركت أنه يعاني من شيء ما في معدته أو حلقه، كان يتصبب عرقًا باردًا وكان مستكينًا تمامًا عدا ذلك الأنين، وحين سندته بيدي حاول أن يخبرني شيئًا فلم ألتقط منه سوى كلمات غريبة ماتت على شفتيه، وهكذا قضينا الليلة الأولى لنا هناك في مستشفى "الصباح"، وعدنا وقد تركنا الرجل في غرفة الإنعاش، وفي اليوم التالي قيل لنا أنه مات، ولم يبك أحد منا عليه، من يبكي على من؟ وتأكدت في تلك اللحظة أن المذبحة بدأت مبكرًا، مبكرًا جدًا عما تخيلته، لم يذهب خيالي إلى هذا الحد، أن تذبح الخراف في الليلة الأولى، وها هي الضحية الأولى تسقط سريعًا قبل أن تخطو الخطوة الأولى نحو الحلم أو نحو الثراء أو نحو الطمع هربًا من الفقر والصراخ والزحام والعرق والألم والعيون البائسة والأنيميا والبلهارسيا والفساد.

* * *

في اليوم الثالث توجهتُ إلى المدرسة التي سأعمل بها، وهناك تم تحديد السكن الذي سأقطنه، واعتذر لي الرجل ذو النظارات عن الخطأ الذي حدث في المطار، وعلمتُ فيما بعد أنهم كانوا بسبيل عدم إعطاء "أمناء المكتبات" سكنًا، ولكن المشكلة تم حلها، واستلمتُ مبلغًا من المال للإنفاق الشخصي لحين إنهاء إجراءات تحويل المرتب على البنك، وحين سألني عن البنك الذي أود تحويل مرتبي عليه لم أتردد في إخباره باسم البنك، وكان "محمود" قد أخبرني بذلك أول أمس، وأتصل بي بعد ذلك في المدرسة وكنتُ قد تركت له عنوانها فطمأنته بخصوص السكن، وقال لي سأزورك.

وفي اليوم الرابع ودَّعنا نعش الرجل الذي مات، أنا والبعض، وكان مع النعش واحد من أقربائه في الكويت، ودفعنا جميعًا ثمن نقل الخشبة بالطائرة ولم يأت أحد من السفارة المصرية، وحين كنتُ عائدًا من المطار لا أدري لماذا تذكرت "سوسن" وأبي وكنت خائفًا من أن يموت أبي وأنا في الكويت كما ماتت أمي وأنا في الصحراء الأخرى، وكنت أحيانًا أقول: هل من المهم أن أخاف أن يموت أبي؟ وتذكرت شجارنا حين قلت له: إن "عبد الناصر" كانت له سيئات أيضًا كما كانت له حسناته. فانزعج صارخًا: "حرام عليك، حرام

عليك، أسكت"، وأدركت أنه يحب "عبد الناصر" أكثر من أي شخص آخر، ولم أكن أدري لماذا يُكِنُّ له كل هذا الحب، وسألني ذات يوم إذا كنت أحب الرئيس الحالي قلت له بلا تردد: "أبي، أنا لا أحب أحدًا"، ابتسم وهو يشير لطبق المكرونة أمامه ثم قطع الدجاجة أربعة أقسام، ولكنني نهضت خارجًا ولم آكل نصيبي، وكانت أختي الصغيرة أول من خطفت الجزء الخاص بي ووضعته كله في فمها، وكان الجميع يضحك.



(٤)

"سوسن" والآخرون

أولاد القحبة، كيف أدخلتم كل زناة الأرض علينا

(مع الاعتذار لمظفر على التحريف غير المقصود)

سكنتُ في شارع بيروت بمنطقة "حولي" في عمارة جديدة وشقة جديدة أثاثها جديد، وسكن معي في الشقة زميلان أحدهما لبناني والثاني مصري، وكان اللبناني يُدعي "نزار الشيخ" أما المصري فكان يدعي "سامح الفوال" وكان أكبرنا سنًا بشعره الأبيض ولحيته الرمادية وابتسامته المعلقة في الهواء، في الأربعين غير متزوج ويعمل مدرسًا للرياضيات، أما "نزار" صاحب العيون الخضراء الصافية والبشرة البيضاء الهشة، فكان مدرسًا للغة الفرنسية، رقيقًا إلى حد ما، صامتًا أغلب الوقت، احترمتْ صمته فلم نتحدث كثيرًا، ولكنني كنت أراه يهتم دائمًا بالورد وبملابسه الداخلية، أما "سامح

الفوال" فكان صاخبًا دائمًا وقال إنه لم يتـزوج لأنـه لم يجـد بيـنهن واحدة شريفة، ولم أفهم ماذا يقصد بشريفة؟

وكان "نزار" جالسًا فقال إن أمنيته الزواج بمصرية، وتساءلت عـن السبب الذي دعاه لقول ذلك، ابتسم ولم يعلق، وفي الشقة المقابلـة كان مشرف السكن يدعي "عبد العظيم" وهو رجل أبـيض سمـين في العقد الخامس، ولاحظتُ أن مقعدته كـبيرة نوعًـا مـا، ولم أهـتم أيضًا في البداية، وأقسمتُ بعد ذلك بأن كل مـن تعـدوا الأربعـين ذوي مقاعد كبيرة أشبه بمقاعـد النسـاء المتزوجـات في القـاهرة، ولم أكن حتى تلك اللحظة قد قابلت نساءً هنا، فقط النـاظر والوكيـل الكويتيان، والسكرتير المصري ومسـاعده اللبنـاني، ورئـيس قسـم اللغة العربية الفلسطيني، والموجه العراقـي، كـان العامـل المشـترك بينهم أنهم جميعًا تعدوا الأربعين وأنهـم أيضًـا مـن ذوي الإليـات المتضخمة، وكنت أتحسس إليتي كل يوم في فـزع، كمـا لاحظـت أن أصواتهم تمتلئ بالدهن، أصواتهم تسيل كقطع الدهن المترسـبة في الفم، فتخرج الكلمات متحشرجة سرعان مـا تمـل الأذن منهـا فـلا تعيرها أي اهتمام، فتسيل في الهواء وتمتنع الأذن عن الإنصات، هل الرفاهية والامتلاء هما السبب؟ وكنت أعجب لذلك.

أردتُ لفت نظر الأستاذ "عبد العظيم" مشرف السكن إلى تعطل مكيف حجرة الصالة، وحين ضربت جرس باب شقته خرج إليَّ وهو يبتسم ابتسامة غريبة، وكان يرتدي لباسًا داخليًا أسود اللون عاري الصدر، وأثداؤه كبيرة بشكل أكثر غرابة ولاحظت فخذيه البيضاوين سمينين منتخفين تحت "اللباس"، لم أنزعج في البداية لكنه حين حاول دعوتي إلى الداخل رفضتُ في أدب وشعرتُ بحرج فجائي، احمر وجهه وقال في برود أنه سوف يتصل بمراقبة "الإسكان" لإصلاح المكيف أو تغييره، ثم أغلق الباب في وجهي، ولم أهتم فربما كان في الحمام حين خبطت على بابه، وربما كان يفعل شيئًا آخر، ولكن فخذيه السمينين وإليته البارزة رفعا من ضغطي فجأة وشعرت بأنني على وشك أن أتقيأ فانسحبت ممسكًا بطني، وفتحتُ باب شقتي ودخلت، سألني "نزار" عمّا حدث فلم أزد بقولي "سيصلحه".

جلسنا ثلاثتنا حو مائدة الطعام، أكل "سامح الفوال" بسرعة ونهم، وكنت أنظر لـ"نزار" وابتسم وكان يبتسم معي، ثم نهض وقال: "أنا خارج، هناك صديق ينتظرني، بالمناسبة يجب أن نقتسم ثمن الغذاء، وأي أكل نأتي به بعد ذلك"، تطلعنا إليه ولكنه ابتسم وهو يزرِّر قميصه وكان يدفع بأقدامه للأمام، قال "نزار" بعد أن

خرج سامح: هل تعتقد أنه سيطول بنا المقام هنا؟ أجبته: بصراحة لا أدري، فليس لي تجربة سابقة في السفر. قال: أنا سافرت كثيرًا، ولكن إلى أوروبا وبالتحديد إلى فرنسا، لا أدري ما الذي أتى بي إلى هنا، ربما حاجتي للمال. صمت قليلاً وواصل: لا أعتقد أنني أحتاج للمال كثيرًا. وسكت فجأة ونهض ودخل غرفته وأغلق بابها عليه، وجلست وحدي، أبحث في ذاكرتي عن "سوسن" وتذكرت كذلك "فرودنسيال" هذا الأمريكي الأطول من اللازم والذي كانت جذوره الأسبانية تطغى على كل ما فيه وكان يجب أن أناديه باسمه الأول مجردًا من لقب دكتور "خوان"، كان مدرسًا لي بالجامعة في السنة النهائية مبعوثًا من هيئة الفولبرايت، ومغامرتنا معًا في ماخور بشارع "محمد علي" وقد رقصتْ أمامنا راقصة ضخمة وكان سعيدًا للغاية، وحين نهض يراقصها لاحظتُ فجأة أنه يشبه عرائس الماريونيت المعلقة في خيوط، وحين أتت زوجته الأمريكية بعد ذلك بشهور انقطعت علاقته بي زمنًا وحين رأيتها لم أصدق أنها بهذا الجمال، وسألتني بعد أول قطعة جاتوه أكلناها "آر يو فارأونيك أور أرابيك؟" لم أهتم بالإجابة، لكنها عادت تردد السؤال في تحدٍ صارخ وأحسست أن صوتها عالي النبرة عن ذي قبل لكني ابتسمت لها ولم أرد، كان من الواضح تأثير الدعاية الصهيونية في

أميركا عليها، وفهمت من "خوان" بعد ذلك أنها يهودية، لكنها ابتسمتْ فجأة ونهضت خارجة ولم تعد، ورحل هو مثلما أتى، وظلتْ الخطابات بيننا بعض الوقت حتى علمتُ من الآخرين أنه مات بالسرطان فانقطعتْ أخباره. كان يقول لي دائمًا: ستتزوج "سوسن" أليس كذلك ؟ ألاحظ أنها تحبك، "سيد"، يجب أن تحبها مثلما تحبك. "سيد" هل تعرف معنى الحب، "سيد" أنظر إلى عينيها، "سيد" لوك، لوك، لوك تو هير آيز دونت ميس هير آيز"، ولكن ها أنت "يا خوان" ترى أنني لم (ألوك) جيدًا، وأني (مسد هير آيز) كنتُ أعمى، أعمى تمامًا وسيظل معي هذا العمى حتى مماتي، أين اختفت؟ حين سألت عنها أبوها الأستاذ في الجامعة أغلق الباب في وجهي، وضعتُ قدمي في فتحة الباب، هددني بإبلاغ الشرطة فانسحبت في هدوء، وأدركتُ أنه لا فائدة.

ولم يقل لي أحد أبدًا أين ذهبت، ربما تكون معي في الكويت، ربما، وربما تكون ماتت وربما تكون في أي مكان آخر، هل كنت أحبها إلى هذا الحد، أم أن اختفاءها هو السبب في سؤالي الدائم عنها؟ لا أحد يجيبني.

في المساء الرطوبة العالية تمسح الأرصفة والوجوه، المكيفات تعتصر أرواحها فتسيل منها المياه إلى أرض الشوارع، نزيفها المستمر، لا أحد يسير في جوف الليل سوى سيارات شاردة، تلف وتدور وتعود إلى نفس الطرق، السيارات دليل الحياة الحائرة، لا قطط ولا كلاب ولا بشر، ولا حتى ذباب، الكل يختنق ويموت على الأرصفة الممسوحة والنظيفة.

عاد "سامح" وكان منشرحًا، ولاحظت أن مقعدته زادت قليلاً، قال إنه سيتزوج، ولما سألته: بهذه السرعة؟ قال إنه خطب زميلته في المدرسة منذ عدة سنوات وفسخت الخطوبة لأسباب لم يذكرها، وأنه قابلها اليوم بالصدفة في الجمعية التعاونية وعرف أنها لم تتزوج هي أيضًا، ثم اتجه نحو المطبخ حيث أعد بيضًا مقليًا وجلس يأكل أمام شاشة التليفزيون في هدوء غريب. وكان نزار نائمًا، أما أنا فوقفت خلف النافذة أتطلع للرطوبة التي بها مس من جهنم.

كنا عائدين "بالباص" في المساء، "سامح" و"نزار" وأنا بعد زيارة سريعة لشبرة السمك على الخليج، سائق الباص الهندي يقوم أيضًا بتحصيل التذاكر، انهمكنا في حوار عن النظام في الشبرة،

بعض الركاب العرب والهنود أيضًا يترنحون علـى المقاعـد، رائحـة الرطوبة والعرق تملأ أرجاء الباص، فجأة علتْ الأصوات بالتهليل، لم نعِ ما حدث تمامًا، حتى سمعنا تلك العبارة، قُتل "أنور السادات"، سمعتُ الضحكات تملأ الباص، "سامح" مكفهر الوجه، "نزار" لا تبدو على ملامحه ردود فعل محددة، وأنا أقف كالأبله، لا أعي تمامًا ما يجري.

بدأ الشجار بين بعض المصريين والعرب في البـاص وسـط دهشـة الهنود، واتهامات سريعة متبادلة، حتى هبطنا جميعًا من الباص الـذي صدم عربة كانت تسير أمامه كان يركبها أحد المصريين، انهمكنا في الصلح بين السائقين، ثم مضينا كأن شيئًا لم يحدث.

هكذا كان يـوم مـوت "السـادات" بسـيطًا هادئـًا، سـرنا جميعًـا في الطريق وكانت كلمات أمي تدور في رأسي: "ملك، رئـيس، وزيـر، كلهم واحد".

* * *

في الصباح كانت الشمس في منتصف السماء، هكذا الحـال دائمًـا مع الشمس هنا، فقد كنت أعتقد أنهـا تظهـر في منتصـف الليـل.

كنت واقفًا في الظل الذي تبلغ حرارته الأربعين، أشعر بالاختناق، وأنا أنتظر "كمال القلقيلي"، أتى في ميعاده ولم يتأخر، ركبت الميكروباص الصغير معه، كان يعمل فراشًا لناظر المدرسة، وكان قصيرًا للغاية له كرش كبير، ومقعده يختفي في جلبابه الأبيض، وقال إنه من بلدة قلقيلية في فلسطين وقد نطقها "كلكيلية"، واتفق معي على أخذ عشرة دنانير كل أول شهر مقابل توصيلي، وحين جلسنا في الميكروباص اكتشفت بأن ابن الشياطين يملأ الميكروباص بأكثر من حمولته، وحين لفتُ انتباهه قال وهو يضحك: "أستاذ، هسه العيال كبرتْ ومصاريهم كثير"، وعلل ذلك بأن لديه من الأولاد عشرة ذكور وبنت واحدة، وهو يبوس ظهر يده وباطنها على هذه النعمة، وقال إنهم سوف يحاربون جميعًا إسرائيل، وحين رأيتهم ذات مرة أدركت أنهم لن يحاربوا حتى ذباب وجوههم، الولد الكبير شعره الذهبي الطويل مسترسل على كتفيه وملابسه لامعة وضيقة يزينها العلم الأمريكي اسمه "فهد"، وقال لي حين سألته عن إسرائيل: "أبي رجل مجنون لا تهتم بما يقول، أستاذ، أنا ولدتُ في الكويت ولا أعرف لي بلدًا آخر"، وشككت أكثر حينما حضرت اجتماعاتهم في مقر منظمة التحرير الفلسطينية بشارع "تونس" لم تكن أكثر من لقاء للديكة وإلقاء

الخطب النارية وبعض من الصراخ والعويل للنساء، وجمع للتبرعات، يرفرف فوق الجميع علم فلسطين، واتهامات بالعمالة والخيانة لأنظمة عربية.

ومع مرور الوقت أيقنت بأننا جميعًا خونة، وتساءلت هل ستعود فلسطين، هل الباقي الآن هو الصراخ والعويل وأحلام الستينيات، هل هذه هي الحقيقة، لم نكن نملك أي شيء سوى لسان تم ضبطه بدقة متناهية على مفردات العمالة والخيانة وبعض الدعوات الصالحات وحفلات تأبين لروح ماتت في قلب أصحابها الموجودين هنا، اللعنة على الجميع بما فيهم أنا صاحب اللسان المقطوع والأذن الكبيرة واللباس المهلهل.

* * *

في المكتبة، قابلت "أبو حمد" مساعدي في الخامسة والخمسين، أبيض طويل محلوق الشارب، لا يتحدث إلا بحساب وإذا طُلب منه الحديث. يرتدي نظارات بيضاوية الشكل ويضع على مكتبه علبة مناديل ورق معطر مغلقة، يخرج منها منديلاً كل بضعة دقائق ويمسح به وجهه ويده، وقال لي ذات مرة بأنه يفعل ذلك بسبب "الطوز"

وهي رياح محملة بغبار ثقيل دائمًا ما يوقف الحياة في المدينة، وفهمت منه أنه يسافر "لندن" كثيرًا وكان ينطق "لندن" بترقيق حرف اللام وظننت لأول وهلة أنه اسم دلع حتى أدركت أنه اسم عاصمة بريطانيا العظمى، وبمرور الوقت أدركت أن الرجل يخفي الكثير خلف صمته، يحلو له الحديث أحيانًا عن النساء اللائي يحرثهن في لندن وقبرص وتايوان، وهو يصر بأننا لم نكتشف النساء الصُفر بعد، نساء الصين، بينما يترنم دائمًا بالشعر الشعبي النبطي.

* * *

قابلتُ العديد من المدرسين، منهم "مصطفى" مدرس الإنجليزية، و"علي" مدرس الموسيقى، وفي منتصف النهار دخل علينا وهو يتطلع إليّ في خجل وثبات، جلبابه الأزرق المزيت، والعصابة الكبيرة فوق رأسه والرمد الذي أكل جفونه، قمت من على المكتب ورحبت به، بعد لحظات كان صوته يجلجل في أرجاء المكتبة: "أخوك، على الريدي، من جِنا" وضحكت طويلاً، وقال أيضًا : عندي بنت، وأربعة قراريط، ودودة بلهارسيا.

ابتسمت له في ود، قال إنه تزوج مرتين ولم ينجب سوى هذه البنت؛ قالها في أسى، ثم اقترب من أذني وهو يقول: "الكويت متوى لأمثالي يا أستاذ سيد، أنا هارب من حكم محكمة، ومن ثأر"، لا أدري ما الذي دفعه لقول ذلك، ولكن "أبو حمد" قال لي وهو يضحك: "الريدي هذا، مينون" ولم أفهم منه الكلمة الأخيرة: "ما معنى مينون يا أبو حمد" قال وهو ما زال في ضحكه "مينون، بالكويتي يعني، مجنون بالمصري، غالبًا ما تنطق حرف الجيم ياء، مثل دياي، يعني دجاج،" وكنا نضحك أحيانًا على محاولاتنا في محاكاة حرف الجيم فنقول أنا يلي تعني أنا جاي، أو أنا أقرأ المَيَلّة، بدلاً من المجلة، واكتشفت أن محاولاتنا خاطئة فليست كل حروف الجيم تنطق ياء وفهمت منه أن اللهجة الكويتية متأثرة بالهندية والإيرانية والعراقية كما أن بها الكثير من الألفاظ الإنجليزية. "وبالمناسبة فإن زوجتي إيرانية"، وقال لي "الريدي" وأنا خارج: "خد بالك، أبو حمد ده راجل شيعي، والشيعة دول ما يعرفوش ربنا،" تردد قليلاً واستطرد: "بس أبو حمد راجل طيب قوي، أقولك أنا مش مصدق إن الشيعة ما يعرفوش ربنا". أحببت أنا أيضًا "أبا حمد" وأظن أنه أحبني، كان بسيطًا للغاية، وكان يسافر دائمًا مع أول فرصة للسفر خارج الكويت، كما أن أغلب الكويتيين وليس "أبو حمد" وحده

يذهبون للندن والقاهرة وبيروت ودمشق والدار البيضاء، وما يفعلونه هناك لا يستطيعون فعله هنا، أو هذا ما يدعيه البعض منهم. وذات يوم كنت أقلب في كتاب عن الحياة القديمة في الكويت، رأيت صورة شاب عارٍ تمامًا يقود قاربًا صغيرًا لصيد السمك وكان هزيلاً على نحو ما، يبدو قضيبه بارزًا ويبدو أنهم لم يكونوا يعرفون "الختان"، وخلفه كانت تظهر بعض البيوت الطينية أو تلك التي صنعت من القش، بؤس قديم كان يفترش المكان، تفوح رائحته في ذاكرة العجائز فقط، كما حدثني "أبو حمد" أيضًا عن ذلك.

وحين تناقش "أسامة العجرودي" مدرس العلوم في ذلك أمامي مع "أبو زيد فتح الباب" مدرس اللغة العربية الريفي، هاجم "أسامة" أسلوب حياتهم الذي يعيشون به، ومشاركتهم الهامشية في القضايا القومية، والإجحاف الذي يتعرض له العرب ومن بينهم المصريون داخل الخليج عمومًا.

قال "أبو زيد": فليفعلوا ما يشاءون فلقد رأوا الكثير في الماضي ثم أننا نعيش بين ظهرانيهم الآن، نأكل من خيراتهم، نعلم أبناءهم، بعضنا يتزوج منهم.

قاطعه "أسامة" في حنق: نحن لا نأكل ببلاش يا "أبو زيد"، ولكن هناك الكثير، نحن في محنة، هل تدرك، محنة حقيقية، وجودنا هنا أكبر دليل على هذه المحنة.

ولما سألاني عن رأيي لا أدري ما الذي دفعني لحديث طويل عن شراكة المصير، وأن وجودنا هنا دليل على ذلك على الرغم من وجود عمالة آسيوية وأجنبية.

بينما قال "أسامة": شراكة مصير إيه يا جدع انت، لو سافرت أوروبا أو أميركا ها تقوللي شراكة مصير؟

قلت: إن هناك اعتبارات اللغة والدين التي لا تقف حائلاً أمام وجودنا هنا.

قال "أسامة": والأجانب والآسيويين؟

قلت: إن مشكلتنا التي نشعر بها هنا قد لا يكونوا هم السبب فيها، بل قد نكون نحن.

صرخ "أسامة": إحنا!!، باين عليك اتجننت.

ضحكت وحاولت شرح الأمر بطريقة أخرى، لا يمكن أن نكون موجودين هنا دون دافع، دافع داخلنا نحن، وليس داخلهم، ربما يكون دافع خوف، وربما بسبب المستقبل المظلم، وربما دافع طمع، وربما دافع هروب من كل شيء، أسباب كثيرة وراء وجودنا هنا.

قال أسامة : كويس يا "فرويد"، وما هو دافعهم.

قلت: ربما لا يوجد دافع على الإطلاق سوى رأس المال، العملية عرض وطلب، ولأن الطلب قليل والمعروض أكثر من الهم على القلب، لذلك يحدث ما يحدث.

قاطع أسامة حديثي: أنا بأقول من الأول باين عليك اتجننت.

قلت: وما الجنون في ذلك؟ لا أعتقد أن السبب في المصيبة التي تتحدث عنها سيخرج عنَّا. أنا وأنت وأبو زيد والريدي وعبد العظيم والموجه والسكرتير وكل الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم أضف لذلك السفارة، وكثير غيرنا وغيرهم.

أصر أسامة على أن السبب فيما نحن فيه "هم" وليس "نحن".

قطع أبو زيد الحديث قائلاً : نروح السالمية النهاردة.

اعتذرت أنا بينما وافقه أسامة.

* * *

أثناء العودة ظهرًا قال "كمال القلقيلي" وهو يقسم بأغلظ الأيمانات كعاداته دائمًا: "هسه، أشرف رئيس عربي هو صدام حسين". وسكت لحظة وهو يواصل قسمه وحديثه: "حين ينتهي

من إيران سوف يتجه نحو الكويت. ولما سأله "أبو زيد" ونحن راكبين في السيارة: كيف يا "كمال"؟ إنهم يساعدونه، قال: الرجل في حكمة سياسية نادرة: "إنها مساعدات الخوف يا أستاذ، الخليج كله يفعل ذلك. قال "أبو زيد": يا أخي أنا لا أدري ما الذي يدفع المصريين للذهاب إلى هناك، قلت له: ربما يجدون هناك ما لا يجدونه في مصر، ثم همهمت: إنه نفس الجرف الذي يلقي الجميع بأنفسهم من فوقه قال: "لا يوجد هناك سوى الحرب". قلت: ربما تعوَّد المصريون على الحرب، وما عدا ذلك فهو موت بالنسبة إليهم. قال: ماذا تقول؟ قلت: "لا شيء، كنت فقط أتساءل، ماذا تريد من شعب ظل يحارب العالم كله سبعة عشر عامًا بدعوى مقاومة الاستعمار والرجعية، ثم يصحو فجأة على لا شيء؟ قال "أبو زيد" وهو يشيح بيده: "صدام أبو شنب"، راجل غتيت،" وأحس فجأة بأنه تورط وانسحب من لسانه وقال عبارة ما كان يجب أن يقولها أمام "كمال القلقيلي" بالذات الذي كان يقول عنه "أبو زيد" أنه جاسوس عراقي في زي فلسطيني، وقال "أسامة" له أن "القلقيلي" يمكن أن يتحالف مع الشيطان إذا كان هناك أمل من ورائه يمكن أن يستعيد به وطنه. وقال "أبو زيد" منهيًا الحديث: ما لنا والسياسة، ليس وراءها سوى وجع الدماغ، ما دامت

آلة القتل بعيدة عنا فلا يجب أن نعيرها التفاتًا" ابتسمت وأنا أقول له: قد تقترب. ضحك وقال: "فأل الله ولا فألك يا أخي" ثم صمت برهة واستطرد وردد: "لا أعتقد أنها ستقترب من الكويت، أليس كذلك يا ولد يا سيد" تكور قلق رهيب في عينيه الضيقتين بينما قال "القلقيلي": يا ريت تقرب حتى يشعر الجميع بما نحن فيه". وتمطى صمت كئيب فوق الرؤوس يطحن في أحلام الثراء التي تعشش في تلك الأدمغة العربية المتنافرة.

* * *

حين أفتح التليفزيون على محطة العراق الحكومية لم أكن أسمع سوى بيانات الحرب والقدرة العراقية الهائلة، وتمجيد دائم في صاحبنا أبو شنب كما كان يحب "أبو زيد" مناداته، ومجلس قيادة الثورة ولم يقل لنا أحد ما هي تلك الثورة التي قامت في العراق، ولا ما هو هذا المجلس، مجلس حكماء أم مجلس للقتل والتنكيل، كل الثورات متشابهة، انقلابات عمياء، يطالعنا وجه المذيع الذي كان يشبه "صدام" وهو يصرخ (عراق الثورة). الوحيد الذي وجدته مختلفًا الفرّاش العراقي الذي كان وجهه خاليًا من الشنب، يحب أكل

البيض المسلوق، وكان يعتقد أنني أيضًا أحب أكله، فيأتيني به فرحًا وهو ينطق البيض "بيظ" بحرف الظاء، ولاحظت أن الجميع في الكويت ينطقون الضاد ظا وكان "أبو زيد فتح الباب" يرثي للغة الضاد العربية كلما سمعها، وكنا نضحك كثيرًا حين نناوشه في هذا الموضوع.

وذات يوم سقط صاروخ فوق الكويت ولم يدر أحد هل هو عراقي أم إيراني، الجميع كان يشعر بأن البلد الصغير يحاول السير على حبل مشدود بين فكَّي كماشة لا يرحمان، ممزق بين عروبته وبين جماعات الضغط الإيرانية وانتماءاته العرقية والدينية، يرسل التبرعات والأموال للطرفين، الصحافة تبدو أنها مع الجانب العراقي بإذاعة انتصاراته، لكن خلف الكواليس كان هناك الكثير.

* * *

في المساء زارني "علي" مدرس الموسيقَى، محتضنًا عوده وسيجارته المحنية بين أصابعه النحيلة الهشة، وكنت أظن أنه يحتضن امرأة يراقصها، أو أن هذه الآلة أحد أعضاء جسده التي خلقت معه، وكنت أعلم أنه بارع في عزف البيانو أيضًا، وقال بأنه لا ينتقل

بدون العود. في تلك الليلة، في صدر الصالة، جلس وغنى لأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم ونحن معه، ثم أسمعنا بعض مقطوعات من مؤلفاته، قال بأن بعض أكبر مغنيي البلد سيغنون له، دندن كثيرًا ونحن معه، وفي النهاية انطرح على الكرسي واستغرق في تأمل عميق وأخرج زفرة طويلة، وسألني إن كنت فهمت دندناته، ابتسمت وقلت له أنا أحسها فقط فلست خبيرًا في الموسيقى، وعلى أية حال فقد أعجبتني كثيرًا، قال بأنه لحَّن لبعض المطربين الشبان في مصر، ولكن لقمة العيش في كار كالموسيقى شاقة، وأن "النحتة" الواحدة قد تستغرق عملاً حتى الفجر وفي النهاية قد تجد من ينغص عليك لقمة عيشك بدعوى الحرام والحلال، وقال فجأة كمن خسر معركته النهائية: "لقد كنتُ أبرع من يضرب عودًا في معهد الموسيقى العربية"، ثم رمى بالعود وأشعل سيجارة كليوباترا، وخرج منه فحيح هادر وردد: "أكيد أنا اتجننت، لكن أعمل إيه في العيال وأمهم"، وشعرت بأن كل ما في داخله قد انهار، وذهبت عيناه بعيدًا غارقًا في سكون لا يوصف، قد نكون لمحنا رقرقة هاربة داخل بؤبؤ عينه، لكنه نهض فجأة وسحب العود تحت يده، وضرب في الشوارع الصامتة الإسمنتية في قلب الليل، وكانت موجات الحرارة العالية تخمد العفريت، فنمنا ونحن

نستمع إلى أنغامه التي مازالت تَتردَّد، لتحل محلها أصوات هدير أجهزة التكييف في المنزل والشوارع، وهي الأصوات الوحيدة التي تسمع هناك في الليل.

* * *

في الصباح يأتي "كمال القلقيلي" حاملاً سندوتشات الطعمية والحمص والفول والزعتر، ويجبي منا النقود ويلقي بها في جيبه بدون عَدّ، وكان يقول بأن المصريين شعب أمين، وكان يدخل مع "أبي زيد" و"أسامة" في صراعات كلامية عن "السادات"، وكنت أنا أنزلق في المقعد أطارد أفكاري عن "سوسن"، وحين ظننت أنني سأنساها طاردتني في كل مكان.

سألني "مصطفى" مدرس الإنجليزية على التليفون من داخل قسم اللغة الإنجليزية عن أخبار ولد يُدعى "سالم علي" وهل يأتي المكتبة أم لا، وكان "سالم" من النوع الهادئ، وله وجه أنثوي بسبب مستحضرات وكريمات كثيرة كان يضعها على وجهه لمعالجة حب الشباب، وقال بأن أم سالم معه الآن بالمكتب، فقلت له إنه (كويس) ولم أزد عن ذلك، كان الأولاد يطاردونه كفريسة سهلة

المنال، حاولتُ ذات مرة حمايته منهم ولكنني فشلت، ولفتَ الناظر انتباهي لمحاولة الحماية هذه ذات مرة أثناء جولاته الصباحية بنظرات من الشك والريبة فانقطعت عن المحاولة، وتركته للذئاب ذات الستة والسبعة عشرة عامًا.

وقال لي "مصطفى" بعد ذلك إن الولد طبيعي ولكنه ولد وسط أسرة كلها من البنات، وأن أباه يعيش هناك في أمريكا منذ سنوات، الولد من فئة الـ (بدون)، فأبوه يعيش في الكويت لكنه لا يحمل جنسيتها، تاجر كبير لا يعلم شيئًا عنهم.

ولاحظتُ أن نسبة الطلاق عالية هنا وبشكل يثير الفزع، ولم يكن ذلك يتفق مع أفكاري عن الخليج المحافظ وتقاليده الراسخة، ولكني تأكدت أن كل ذلك ما هو إلا وهم وضحك على الذقون، فالعالم كله لم يعد يعترف بمبادئ ولا تقاليد، الخيانة وأطفال زنا ورذيلة متسللة وخدم وموامس ومعاملات سوداء وقروض سفر وربا عيني عينك، وأشرطة جنس عربية.

* * *

قال لي "أسامة" في خبث وهو يهز برموشه كثيرًا تحت نظارته: "مصطفى" ولد نمس، وقَّع "الولية" بسرعة.

ولم أفهم منه أية "ولية" تلك، حتى اعترف "مصطفى" لي بكل الحقيقة بعد ذلك وبلقاءاته بها في الجمعية التعاونية، وركوبهما سيارته أحيانًا، أو ذهابهما إلى الصحراء وحدهما في العربة "الفان" الخاصة بها، تحدث عنها في رقة متناهية، وصدقته. كان وحيدًا تمامًا ليس له تجارب، ما بالك وهو يقع في حفرة امرأة قارحة في الخامسة والأربعين ذات جمال ونعيم، لا أعتقد أن "مصطفى" نظر في مسألة عمرها كثيرًا في علاقته بها، كان واقعًا لشوشته وهذا قضاء الله، بنت القارحة كانت تتعمد انتظاره أمام "الجمعية التعاونية" وهو خارج منها بعد أن عاينت البضاعة في المدرسة، نادت عليه، انتابه إحساس بالخجل وهو يتقدم نحوها، دعته للدخول وتوصيله للسكن، قال لي "لم أجد مفرًا من قبول الدعوة، امرأة فيرست كلاس، كان إحساسًا غريبًا فلم تكن لي تجارب سابقة تجعلني أؤكد هذا الإحساس، ركبتُ معها وأغلقتْ زجاج السيارة، مكيف السيارة والموسيقى التي تنبعث من الكاسيت وابتسامتها المشجعة هدَّأ من أعصابي المتوترة، لا تسألني ماذا حدث بعد ذلك، لقاءاتنا مستمرة، لا أريد لها أن تنتهي، ربما هي الشيء الوحيد الجميل هنا، "سيد" أنا سعيد، إنها تغني، هل تصدق، (مصطفى يا مصطفى، باحبك يا مصطفى).

لا أدري لماذا شعرتُ بالقلق عليه، مدلهًا في حبها تمامًا،قال إنه سوف يقاتل العالم من أجلها، لكنه لم يفعل، بعد أربعة أسابيع تم ترحيل "مصطفى" ولم يقل أحد السبب، وأظن أني أعرف، تم ترحيله من السجن إلى القاهرة رأسًا، لم يعرف السبب في ترحيله أو سجنه وقتها، لكن هذا ما حدث، كنت أشم رائحة علاقته بـ"أم سالم علي" في القضية، وحين اتصلت بي "أم سالم علي" وكانت تبكي في التليفون قالت: أنت الوحيد الذي قال لي "مصطفى" أن أتحدث معه،" ولم تقل شيئًا آخر سوى أنها سوف تسافر إليه في القاهرة، لم أرد بشيء، سافرتْ المرأة إلى القاهرة بالفعل ولم أعرف ماذا حدث إلا بعد ذلك بشهور حيث أصبحتْ "أم سالم علي" زوجة له هناك، ولكني لم أعلم أني كنت على موعد مع "صبيحة علي" أخت "سالم علي" الولد الذي كان يملك وجه أنثى وقلب رَجُل فيه كان قد تم انتزاعه منذ أمد طويل.

(٥)

"سوسن" وواهب المحار والردى

في قريتنا استباحوا الرجال دون النساء،
بدعوى أن النساء لا تُشبعن رغبة.

في المساء عرفت الطريق إلى الخليج، بدأتُ التعود على الرطوبة العالية والأضواء الكثيرة التي تموت في منتصف الليل، وهناك على الخليج، على الرمال الصفراء الشاحبة، كنتُ أتمدد في الظلام، لا أدري متى تكرر هذا الموقف، في صحراء سيدي براني، في صحراء سيناء، في الصحراء الكبرى، أي صحراء كانت. لا أدري؟ أُطلق حبال الشوق نحو "سوسن" و"سُنسُن" و"صلاح" و"ميشيل" و"شعبان" وقطار مرسى مطروح، حتى الطبيب الذي كان يفحص مقعداتنا وعاناتنا، لم أعد أشعر بأني أكرهه، لقد خرجت من هناك كارهًا لكل شيء، فلماذا أحن الآن؟

يبدو أن هـذه عـادة المصـريين لا يعرفـون قيمـة الأحبـة إلا حينمـا يبتعدون عـنهم، حتـى هـؤلاء الـذين يكرهـونهم، كنـتُ في تلـك اللحظة قد فقدت القدرة نهائيًا على كره أي شيء.

ولكن الغريب أنني لم ألاحظ أبدًا ظهور القمر أو أفوله وأنا علـى شاطئ الخليج واهب الحار والردى، هل هذا هو الخليج الذي كتـب عنه الشاعر العراقي "بـدر شـاكر السـياب"، أم هـو خلـيج آخـر يستقبل النازحين الباحثين عن الثروات، كنت أتفحص سطح المياه، وكنت متأكدًا أني في زمن مختلف، فنحن لسنا بالعراق ولسـنا أمـام هذا الرجل الـذي يصـيبنا بالرعـب، رجـل عـراق الثـورة، الحـرب العراقية الإيرانية مستمرة ولا جديد فيهـا، الاتهامـات متبادلـة مـن الجانبين، قال لي "علام" – الفراش العراقي – بأنه يخـاف العـودة حتى لا يأخذونه في جيش العراق.

- ولكنك فوق الأربعين يا علام؟
- "أستاذ إنهم لا يفرقون، أبي أشـوف أمـي وزوجـتي وهيـك مـا أستطيع، كما أنني سأنظرب هناك، في البصرة لا يرحمون".

لا أدري إن كنت ابتسمت أم رثيت حاله، كان واقفًـا أمـامي حـائرًا أين يضع الساندويتشات التي أحضـرها مـن "كمـال القلقيلـي"، كحيرته في الذهاب إلى بغداد من عدمه.

نهضت وسرت قليلاً فوق الشاطئ، وفي الظلام القريب رأيت جسدين داخل سيارة كبيرة، امرأة نصفها العلوي شبه عار، ورجل يضع طرف جلبابه في فمه ولم أر نصفه السفلي، لكنني لاحظت أثناء دوراني حول السيارة مقعدته الكبيرة تتسلق أعلى المقعد الجلدي النائم إلى الخلف نحو صدر المرأة، ابتسمت ومضيت نحو الإسفلت وكانت هناك سيارة شرطة تدور في سكون، تطلعت إلى من بداخلها، كانوا صغارًا في السن.

مضيت في طريقي دون أن يوقفني بينما كان واضحًا أنهم متجهون نحو المرأة والرجل في السيارة.

في الصباح قال نزار إنه اشترى شقة في "بعلبك" ولا يدري كيف ستسير الأمور، أما "سامح" فقال هازئًا "شقة في لبنان، استثمار خطر، مجنون". ابتسم نزار وهز رأسه ولم ينطق، وقال "الفوال" موجهًا حديثه إليَّ، وجدية تمسكت بملامح وجهه شبه المبتسمة: "اسمع، لابد أن تأتي معي الليلة سنقابل سهير. ولما سألته سهير من؟ قال: "خطيبتي، سنحتفل سويًا بالخطوبة،" ولما سألته إن لم يكن قد تسرع، قال وهو يضحك: "ولماذا الانتظار، لقد جمعنا المكان، ولن تفرقنا الظروف مرة أخرى"، قلت له" هذه هي

الحكمة"، لكنني لم أكن قد أكملت جملتي حين فلجأني في فجاجة: "إوعَى تكلمني عن الحكمة والشرف والحب وهذا الكلام الفارغ، ببساطة كان عيبها زمان إنها فقيرة، لكن دلوقت، حاجة تانية، ست معاها فلوس"، ابتسمتُ، كان واضحًا مع نفسه تمامًا، وقال "اسمع، أعلن أنها قطعتْ الخلف، خمسة وثلاثين سنة، يعني سن اليأس، من يعلم، يمكن أن لا تخلف، ولكن الفلوس، الفلوس يا صديقي تعوض عن ألف طفل، أنا مدرس رياضيات أحسبها كويس، بلاش احسبها انت، ست في هذه السن، في الخليج، يعني قاعدة على زكيبة دنانير ودهب، بصراحة أبقى راجل حمار لو لم أتجوزها، لا تكلمني عن الحب (وغمز بعينه وكانت لحيته الرمادية البريئة تهتز) وبعدين انت عارف إن فيه حب قديم"، ابتسمت وسألته "أنت متأكد؟" رد سريعًا "ولو مش متأكد، فلوسها تؤكد كل شيء" قلت "الفلوس تعمل كل هذا؟" قال "أكثر، أصلك لم تذق الفقر" "مين قالك" هز رأسه: "هاتيجي؟"

- "طبعًا".

إن الشمس ذاتها لو حاولتْ أن تكون بهذا الوْضوح ستحترق، لكن "سامح الفوال" كان أقوى من كل النجوم.

في السادسة والنصف صباحًا كانت شمس منتصف الليل تنتظرنا في أول فرجة السلم، وكان المصعد معطلاً ولم أستطع مقابلة "عبد العظيم" مشرف السكن لأخبره للمرة العاشرة بضرورة إصلاح مكيف الصالة.

* * *

"كمال القلقيلي" ينتظر، يداه القصيرتان تمرحان في الهواء، وابتسامته الواسعة تسبقه دائمًا، و"أبو زيد" ما زال جالسًا يتمطى لم يستيقظ بعد، و"أسامة العجرودي" صاحب النظر القصير يدفع بالكتاب المدرسي إلى أمام عينه، أما ابن "كمال القلقيلي" الصغير فكان نائمًا في المقعد الخلفي وحين رآني استيقظ واقترب مني وأجلسته أمامي ورحنا نتحدث في هموم الأطفال في هذا البلد، لاحظنا معًا هذا الطفل الذي يبيع "درزن" علب المناديل الورقية بدينار واحد على ناصية شارع بيروت، وكنا نراه كل يوم، قال "ابن كمال": أنا أعرف هذا الولد.

ولما سألته" من؟ قال بأنه "محمود بن إبراهيم الإنشاصي" التاجر في كل شيء. ولما سألت "كمال" عن سبب دفع الرجل لأبنائه

للقيام بهذا العمل، قال: "هادول عيال أولاد حرام، وأبوهم رجل طماع، يتاجر في كل شيء من الإبرة إلى أعراض النساء، وضحك؛ يبيعونك يا أستاذ لو اقتربت منهم". ولم أفهم سر ثورة كمال على الرجل، وأرجعتها لغضبه لمرأى الولد، ولكنني فهمت من ابن كمال أن أباه تشاجر أكثر من مرة مع "إبراهيم" بسبب احتلال أولاد "إبراهيم" لناصية شارع بيروت مع شارع تونس وعدم تركها لأبناء كمال، ولم أكن أعلم أن كمال يتاجر في كل شيء، حتى رأيته يبيع كؤوسًا وميداليات للمدرسة ويشتري خرفانًا لبعض المدرسين، ويبيع خضارًا في صناديق، وأدركت أن "كمال القلقيلي" مدينة كاملة وليس مجرد فراش في مدرسة.

* * *

قال لي "أبو زيد" في نهاية اليوم الدراسي، لا يمكن أن يستمر الحال على ذلك، ولما سألته عن سبب شكواه قال بأن هذا المرتب الذي نأخذه لا يمكن الحياة به في الكويت، نظرت إليه في تعجب وقلت: "إن المرتب يفيض عن حاجتنا". أطاح بيده في الهواء، وقال في سخرية: "لن يفيض يا أخي لو تزوجت، ستصرفه عن بكرة أبيه ولن يبقى لك بعد ذلك سوى الحسرة".

ضحكت ثم سألته: "هل تفكر جديًا في الزواج"، قال: "ادعي هذه السنة تمر على خير، سأعود وفي يدي العروسة". قلت: "بسرعة كده؟". قال وهو يضحك: "سأصاب بتصلب في الشرايين وأزمات قلبية وربو وسكر وضغط أيضًا". وسكت لحظة وواصل: "وفوق البيعة ضمور في الأعضاء". تصاعدت ضحكاتنا، وقلت: "لابد من الانتظار". قال: "الانتظار في مثل تلك الحالة رجس من عمل الشيطان". قلت: "والزواج أيضًا". وأكمل أسامة وهو يدعك عينيه بعد أن استيقظ مما هو فيه: "سيبك منه، أمثاله يمكن أن يعيشوا على الفتات". أجابه أبو زيد في غضب: "الفتات يا قصير النظر". أشاح أسامه بيده، وكان أبو زيد يقول نافيًا: "هذا رجل كثرت تهويماته وضرب الدم نافوخه الطري فلم يعد يعرف ماذا يقول". رد أبو زيد وهو يضحك: "أنا مجنون يا قصير النظر، والله أعلم قصير إيه كمان؟" وابتسمنا بينما قال أسامة: "على الأقل أنا عندي عيال، الدور والباقي على الذي ينام نومة العازب"، وهكذا كانت تمر الأيام علينا في أباطيل لا تنتهي.

* * *

قال لي "علام" بأنه سوف يسافر العراق في إجازة نصف السنة وليحدث ما يحدث، وقال بأنه سيترك بعض فلوسه في البنك هنا وسيأخذ البعض الآخر معه"، سألته: "ألست خائفًا؟" قال بأنه لم يعد هناك سبب للخوف فقد أصدر صدام حسين مرسومًا بالعفو عن المتخلفين عن دخول الجيش مقابل دفع رسوم، لذلك سيذهب ليقوم بدفعها. قلت له: "وهل تصدق صدام حسين؟" صمت ولم يتكلم، ولم أود أن أزيد من شكوكه فطلبت منه أن ينظف رفوف المكتبة من الطوز الذي أغرقها أمس، فشمر عن ساعديه وأحضر دلو الماء وغرق في مشروع النظافة ولم ينطق طول اليوم، ولكن حين كانت تتقابل عيوننا كان يحاول التأكد من الإجابة على سؤالي، ولكنني كنت قد صممت على عدم بث التردد في نفسه.

وقال لي "أبو حمد" أنه سوف يسافر أيضًا إلى دبي في منتصف العام، ولما سألني عما سأفعله قلت له أفكر في العمرة في السعودية، قال ليس هذا وقت عمرة، ثم إنك لم ترتكب كثيرًا من الذنوب على ما أعلم، أخبرته بأن أمي قبل أن تموت كانت تود العمرة، وأني أريد الذهاب عنها، حدق في وجهي من تحت نظارته البيضاوية وصمت، أما أنا فكنت جالسًا أقلب في سداسية الأيام

الستة لأميل حبيبي، حين أخذت فجأة في حصر ذنوبي فوجدت "سوسن".

قلت لها ذات يوم "ثاني من سيدخلون النار العبد لله سيد العبد"، قالت "ومن هو الأول؟" قلت لها "من أتى بي هنا" قالت وهي تضحك "ومن الذي أتى بك هنا؟". قلت لها "قلبي". وكنت أضحك، وحين ضاعت تأكدت أني الأول في القائمة حين ندخل الجحيم، ولكني كنت مستعدًا للعذاب ولست في حاجة إلى جلادين فقد كان لديَّ ما يكفيني، أنهض أحيانًا في قلب الليل أبحث عنها، أفرد ذراعيَّ على آخرهما وأمد بكفي في الظلام أبحث عن يديها ووجنتيها، ودائمًا ما كنت أقبض على الفراغ السحيق وأسقط في مستنقع الجنون.

* * *

استدعاني الناظر اليوم، ولم يكن هناك سبب محدد لذلك، وسألني سؤالاً ظاهره البراءة "هل أنت متزوج؟"

قلت له: لا.

قال: يجب أن تتزوج في أسرع وقت.

قلت له: لا أفكر في هذا الموضوع الآن.

قال وهو يمسح لحيته ويتفحص وجهي في شك: "الإسلام يحض من هم في سنك على الزواج".

وأدركتْ أني سأدخل معه في جدال لا طائل من ورائه، وعدته خيرًا حين نزولي مصر، قال لي مؤكدًا: "سيد، ما تنسى، أبيك تتزوج".

وقلبتُ الأمر في عقلي وأنا خارج فلم أجد سببًا لإصراره على زواجي أنا بالذات، ولما قلت ذلك لـ"أبو زيد" و"أسامه" فوجئت بأن الناظر سألهما نفس السؤال، وقال "أبو زيد" كعادته دائمًا حين يعجز عن فهم أي شيء "راجل مجنون"، على العموم أنا طمأنته بأني سأتزوج وقال "أسامه": "وأنا قلت له إني متزوج". سألت نفسي "ترى ماذا يريد؟". قال لنا الوكيل وهو جالس على حافة مكتبي بأنهم قبضوا على مدرس مخنث ولما سأله "أسامه" عن جنسيته رفض أن يجيب، ولم تشر الصحف إلى حادثة مثل تلك التي أشار إليها الوكيل، ولكنها أشارت إلى حدوث تجمع لشباب من الجنس الثالث على شارع الخليج، وبأن الشرطة قد قبضت عليهم وأودعتهم معسكرًا للجيش.

عند العودة ظهرًا كان "كمال القلقيلي" مبتهجًا على غير العادة، ولما سألته عن سبب هذا الابتهاج قال وهو يهرش في قفاه: "والله يا

أستاذ يبدو أن الكويت هسه ابتسمت لنا". فلما سألته عن السبب قال: "لقد تقدم لابنتي عريس كويتي، عسكري بالحرس الوطني والولد من البدو الشرفاء، ولقد قبلتُ زواجه منها، ولكني قلت له أمهلني بعض الوقت، هسَّه فيه مصاري عرس وخلافه". قلت له "مبروك". قال "الله يبارك فيك، العقبى لك".

وعدت أنظر للشمس القاسية في قلب السماء، كانت شمسًا من النوع المخيف، تاركة ظلالها الحارقة دائمًا في كل مكان، وتذكرت نفس الشمس يوم كنا هناك بالقرب من سرية الماء، كنا نائمين بداخل الملجأ، وعلى بعد عشرة أمتار منه وقف "مجدي مينا"، جندي المؤهلات الذي أتى معنا، قبل خروجنا رديفًا بعد وصولنا بعدة أشهر، وقف يعبث في دانة ملقاة بين الصخور منذ الحرب العالمية الثانية، انفجرت الدانة بعد أربعين عامًا من الانتظار في "مجدي بن مينا"، ماتت شهادة هندسة وعمر بلغ الاثنين والعشرين وأحلام بريئة، طار الملجأ من فوق رؤوسنا، وحين وقفنا فوق جثته لم نجد سوى رأسه الجميل الصغير الذي كان يحتوي كل أحلامه، وكان هناك خيط وحيد، خيط من الدم يسيل فوق الرأس الباقية تعلن للعالم أجمع بأن هنا، في قلب الصحراء مات فتىً بقنبلة انتظرته أربعون عامًا، اللعنة.



(٦)

ما بين "صبيحة علي" و"سوسن"

العيون لا ترى، من المؤكد أنها ليست عيونًا

"صبيحة علي"، وجه لا ينسى ولا يمكنك عبوره هكذا بمثل السهولة التي تقفز بها فوق الأرض، فهي حاجز كبير يقف أمامك متحديًا لكل لا مبالاتك وعاداتك وانشغالاتك اليومية، يقول إن لم ترني سأحرقك، أو هي أشبه بكرة الجليد التي تنزلق فوق منحدر تأخذ كل من في طريقها. "صبيحة علي" مدينة أخرى داخل تلك المدينة، تشكل هي "وكمال القلقيلي" واحدًا من أساسات هذه المدينة.

قابلتها للمرة الأولى في المدرسة، التقت عينانا لقاءً عابرًا، والمرة الثانية كانت في المكتبة العامة في "السالمية" مساءً، ابتسمتْ للحظات؛ بادلتها الابتسامة ورحت أقلب في "ذئب البحار" لـ"جاك لندن". وفي المرة الثالثة ابتسمتْ واقتربت مني حين كنت

أتجول في مجمع زهرة، مبنى خاص بالملابس والعطور والنساء واللوحات الفنية، دق قلبي بشدة ولم أدر هل كان يلق من الخوف، أم من عينيها الواسعتين وشفتيها الغليظتين الشهيتين، خاصة شفتها السفلى التي كانت تناديني وتجذبني إليها بسرعة الضوء، ولكني كنت ثقيل الحركة والفكر، حاولت تذكر "سوسن" وفكرت بسرعة في "سُنسُن" ولكن "صبيحة" كانت قد حطمت الحواجز الوهمية التي أقمتها فتبخرت في ثوانٍ، ماكياجها الخفيف وشعرها الأسود الطويل (فيه الكثير من شعر سوسن)، "والروج" الأحمر القاني وكفاها المخضبتان بالحناء.

قالت فجأة: "هلا، حسبتك مثقفًا يستمتع بالقراءة فقط، لا يمكن أن تأتي إلى مجمع زهرة". قلت لها بسرعة وأنا أداري بعض ملامح وجهي المشتعل: "وهل المثقفون عُمي أو صُم، آتي إلى هنا لأرى اللوحات الفنية وأسمع بعض الفنانين، ولا مانع من رؤية الأشياء الأخرى". قالت في خبث جميل: "الأشياء الأخرى هنا غالية جدًا"، هل كنت غبيًا حينما فوت هذه الفرصة، شفتاها تسدان عليّ الطريق وجملتها تفتح لي كل غرف النوم المغلقة في الكويت، قال لي "أسامة" ذات يوم "هل سنموت دون أن نرى الجسد النسائي العربي؟" قلت وأنا أضحك "سنموت فقط؟"، قالت لي:

"تشرب جهوة؟" تلفتُ حولي بشكل تلقائي، قالت وهي تضحك: "هنا، أنت في أوروبا، لا أحد سيهتم بنا".

كانت تمتلك جرأة غريبة للغاية، بلوزتها البيضاء وصدرها الذي يذكرني بصدر "ليلى مراد" وبأفلامها الرومانسية، والجوب التي تناثر الورد البرتقالي عليها، وبشرتها الخمرية، كل ذلك دفعني للجلوس معها في كافيتريا مجمع زهرة، حيث كانت العيون تسير دون أن تتوقف عندي، وبدأت أهدأ، ذكرى "مصطفى" في بالي تزعق كبقعة لهيب قاسية حارة مميتة تختفي لتعود أشد وطأة، لقد تم ترحيله في ساعتين، وأمها، أمها هي من كانت وراء ذلك، تم ترحيله من الدار للنار، دون فرصة للدفاع عن نفسه بسبب علاقة فرضت عليه "امرأة العزيز تجوس في البلد بلا هوادة".

هل أنا خائف من نفس المصير؟ "مصطفى" كان يلتقي أمها في الظلام، وربما كان يفعل ذلك في قلب الصحراء في سيارة أمها الكبيرة، وحين رأيت المرأة أدركت سبب مأساة "مصطفى"، وحين قابلت "صبيحة" للمرة الأولى أدركت أنها لن تكون المرة الأخيرة، ولكن هل كانت لقاءاتنا وراءها الصدفة، ولماذا رأتني هي في المرات الثلاث أولاً، هل كانت تسير خلفي، ترى ماذا كانت تريد؟ ما سبب جرأتها الشديدة؟ لا يبدو من مظهرها أنها جريئة لهذا الحد

ولكن هذا ما حدث. لا تشبه أخاها ولكن قلبهـا أشـد منـه جـرأة، قلبها مازال في مكانه يتوهج عاليًا، حلاوتهـا تنـزف منهـا، عيونهـا الواسعة تتسع كل شيء أنا وما حـولي، ولكـن لمـاذا أنـا بالـذات؟ هكذا سألتُ "صبيحة" حـين جلسـنا نحتسـي القهـوة العربيـة في مقهى بمجمع زهرة بجانب جاليري صغير في السالمية بمدينة الكويت بالجزيرة العربية، أنا هذا الأجـنبي وهـي العربيـة الأصـيلة، لا أدري لماذا تـذكرت سـؤال زوجـة "فرودنسـيال" هـل أنـت فرعـوني أم عربي؟

كنت أسأل نفسي عن السبب في غربتي في البلد العربي، ولم تكـن هناك إجابات.

(٧)

ما بين "رحيم" و"سوسن"

إذا كانت كل حقوقنا قد نُهبت،
فلماذا الاستمرار في نَهبنا؟

كنت أتسكع في شوارع السالمية، والتسكع تقليد عربي أصيل منذ أيام "عروة بن الورد" كبير الصعاليك، وذلك حين نصاب بفراغ قاتل فلا نجد ما ندميه سوى أقدامنا وأفكارنا وعيوننا، وهناك في بلاد العرب قابلت الصعلوك الأكبر، منذ أعوام اختفى، اختفى في حرب حقيقية ليظهر أمامي هنا، فلتحيا أيام الزندقة الميته، "عبد الحميد عبد الرحيم" صاحب اللسان السليط والعبوس الجميل والسخرية اللاذعة والأقمار التي يحتفظ بها في جيبه الأيمن يخرجها حين يشاء، ناداني عبر الشارع وحين سمعت اسمي تجسد بكل ملامحه العبوسية أمام بصري، ملاك عابس هبط من السماء، قلت لنفسي هناك مخلوق واحد في العالم هو الذي كان يناديني بهذه الطريقة، في

الخلف لمحته يقف بعيدًا مستندًا على سيارة وقد أطلق ابتسامة واسعة أعقبها بقهقهة عالية أزاحت من طريقي كل الظنون التي بدأت في التكاثر، معرفة قديمة موغلة في العتق، مثل الخمر الفرنسية التي سمعت عنها ولم أرها، لم أصدق نفسي حين رأيته، صاح: "ماذا تفعل هنا يا أثيم؟!" قلت وأنا أصرخ من الفرح: "الكلاب الضالة دائمًا يلتقون مصادفة". كنا غارقين في الأحضان نرفع بعضنا من على الأرض نلمس سقف السماء الذي اتسع لنا، في بلاد العرب البعيدة.

"رحيم" معرفة أيام الثانوية كان أكبر مني بسنوات عشر على الأقل ولكنه تأخر في كل شيء، في الحياة والتعليم والحب، وتركني وأنا في السنة النهائية في المدرسة الثانوية ودخل الجيش وانقطعتْ أخباره عام ٧٣، وكانت لنا مغامراتنا النسائية الأولى مع بنات الجيزة الثانوية والأورمان، وشهد كازينو قصر النيل أول لقاءاتنا الغرامية، وكانت المرأة الأولى في حياتنا لنا معًا، وانضربنا علقة ساخنة في قسم "الدقي" يوم قبضوا علينا في شقة أحد أصدقائنا بعد أن سرقنا منه مفتاح شقته، وحين أتى الولد كان معه أبوه وحين فتحا باب الشقة وجدانا نحن وبنتان يا مولايا كما خلقتني، وقبض علينا أهل المنزل وفي قسم "الدقي" شبعنا من اللكمات والصفعات

وأخيرًا أفرج عنا بعد أن كتبنا تعهدًا أمام المأمور بعدم العودة لذلك.

انقطعت أخباره عني بعد دخوله الحرب، ظننته مات، حتى علمت أنه خرج من الحرب مصابًا وسافرَ إلى الخليج بعد ذلك؛ سافر لدى بعض أقربائه، وانقطع الحبل السري الذي كان يربطني به.

تفحصته في صمت رأيته سليمًا معافى عدا بعض الشعيرات البيضاء التي أكلت دماغه.

* * *

أقسم بالعظيم ثلاثًا وبرحمة جده الكبير عروة الذي لم يره وترك دماؤه تجري فيه عبر كثير من الخرافات أن أبيت الليلة معه ولما سألته ولماذا هذا الإصرار قال "لا تخف ستنام نومة عمر أبوك ما حلم بها؟" قلت له: "أبي كان يحلم بالنوم فقط، حتى لو في زريبة". سألني عن أمي الحاجة، قلت له: "ماتت وأنا في الجيش كما أنها لم تحج". صمت دقائق وقال "ولا يهمك"، ربت على كتفي وسكت، ركبت معه السيارة، وأسمعني بعض الأغاني والموسيقى الجديدة التي ظهرت في مصر، لا أدري لماذا خيم علينا صمت قاسٍ جميل ونحن نستمع إليها، كان هناك شيءٌ ما غريب يحدث حين

أغلقنا السيارة وأشعلنا سيجارتنا، كنت أشعر بأني في مصر، في قلب القاهرة، أنا هذا الغريب الأجنبي هنا في بلاد العرب، هل بسبب وجود "رحيم" أم بسبب موسيقى "عمر خيرت" وأغاني "علي الحجار" و"محمد منير"، أم لأنني شعرت بشوق غريب لكل ما تركته خلفي هناك؛ شوق فلجأني ليس له محل ولا اسم.

* * *

في "الضاحية" وقفنا أمام فيلا تحوطها مساحة كبيرة من الأشجار والورود، يفصلها عن الشارع سور من النباتات المتسلقة به فتحة متناسقة، يشقها ممر صغير إلى الداخل، وعلى اليمين كانت هناك طاولة خضراء وثلاثة كراسي بلاستيكية برتقالية اللون، وأرجوحة أطفال في ركنها البعيد، لمحتُ في الخلف هناك شبحًا صغير الجسم يتحرك خلف الحاجز الحديدي الداخلي الذي يفصل بين الحديقة ومدخل الفيلا، شبحًا يتحرك في خفة وسرعان ما ركض واختفى خلف الفيلا التي ارتفعتْ أمام عيني فجأة، كانت مكونة من طابقين واجهتها من الزجاج العاكس فلم أر شيئًا. دخلنا من البوابة الحديدية وكان يسير ويركض في نفس الوقت وهو ينادي

عليها "فجر"، أطلتْ برأسها الصغير، ريفية لا تتجاوز العشرين عامًا عيناها الذكيتان تتفجران بتهليل عاتٍ كأنهـا لم ترنـا إلا الآن، قال لها: "سيد، صاحبي وحبيبي، يللا يا بت، اعملي لنا أكلة حلوة". ودفعني في رفق أمامه قائلاً: "أدخل يا أبو السيد، أدخل". دخلتُ، كان يسكن ملحقًا بجوار الفيلا، في الأصل كانت هذه الملاحق مخصصة للخدم في البيوت الكويتية بعضهم تركها للخدم، والبعض قام بتأجيرها للهنود والمصريين والسوريين، الكويتيون شطار في التجارة كما يشاع.

في حجرته في "الملحق" الملاصق للفيلا، جلسنا حول "طبلية" من البلاستيك، يستخدمها مكانًا للطعام والقراءة في ذات الوقت، قلتُ له ماذا تفعل هنا، قال بأنه يساعد زوج عمته الكويتي في بعض شئونه التجارية، نهض وخلع ملابسه الخارجية وقال بأنه سوف يسافر "تركيا" غدًا في الفجر، خلع الجورب ودخل الحمام المجاور للغرفة وكنتُ أسمع خرير الماء وهو يأخذ دشًا، وقال بأنه سوف يعود بعد أسبوع، وقال: "لا تغيب عن المنزل خلال هذا الأسبوع، أريدك أن تأتي كل يوم". سألته "لماذا؟" رد سريعًا: "سأقول لك". أخذت أتطلع إلى رفوف الكتب وشرائط الكاسيت ومجلات روز اليوسف وصباح الخير وبعض من أعداد مجلات أدبية،

أدركت أن "رحيم" مازال يمارس هوايته الأولى والأخيرة بعد النساء. خرج بعد دقائق وقد التف في روب الحمام، ودخلتْ "فجر" رأيتها في النور هزيلة إلى حد ما، ذات ملامح دقيقة مرسومة بيد فنان مصري أصيل استوحى وجهها من الريف المصري وبشرة عذبتها شمس الحقول، جلستْ مستندة على ركبتيها ووضعت الطعام على الطبلية: باذنجان مخلل، وسمك، وسلاطة خضراء، وخبز أبيض وكوبان من عصير البرتقال.

تطلعتْ في وجهي في خجل وابتسمتْ فابتسمتُ لها، نهضت بسرعة ودخلت إلى الحمام بعد أن لملمت ملابس "رحيم" وحذاءه وجوربه.

أكلنا حتى الشبع، وطالعتُ وجهها البسيط الملامح وهي واقفة على الباب كقط أليف، قال لها "رحيم": ادخلي، دخلتْ ووضعت صينية الشاي التي كانت بين يديها على الأرض، ولم ترفع رأسها قال لي رحيم "فجر" أقوم بتعليمها القراءة والكتابة، ومادمت أنت موجود فقد ضمنًا معلمًا مجانًا ودائمًا، أنت مدعو للعشاء يوميًا مقابل تعليمك لها، على الأقل في فترة غيابي، ثم "تنحنح" وقال: هذا إذا كان لديك وقت، كما تعرف أنا لا أحب العَطَلَة.

كانت له ألفاظ لا يمكنني تجاوزها، تطلعت في وجهها الصبوح وسألته أهي فلاحة؟ قالتْ فجأة وهي تكركر بصوت رقيق: "من نجع الحادثة"، قال "رحيم ": أمال ساكتة من الصبح ليه وحياة أمك؟". ولم أصدق أنني محاط بكل هؤلاء المصريين بعيدًا عن مصر بآلاف الكيلومترات، على الخليج العربي الذي كنت أشعر فيه بأنني أجنبي فقط منذ ساعات مضت.

غسلنا أيدينا ودعاني للجلوس في الحديقة، نهضتُ وحين دخلتُ الحديقة شعرت بأنني في قطعة سُرقت من الجنة، الورد البلدي والفل والنرجس والأرض الخضراء الرطبة، ورائحة حشيشة الأرض، الأصص متراصة بجوار النبات المتسلق في نظام هندسي أبدعته يد فنان، كانت تلك المرة الأولى التي أشعر فيها بهدوء وسكون منذ زمن طويل، ومن بين فتحات السور حيث تلتف النباتات المتسلقة لمحت سيارة الشرطة تدور في هدوء وكان بداخلها هؤلاء الشباب صغار السن.

* * *

في المساء التالي ذهبتُ إلى "فجر" هذه الفلاحة المصرية التي أتت من "نجع الحادثة" بالقناطر لتعمل في الكويت، وذلك بعد سفر الصعلوك الأكبر فجر الليلة الماضية، سألت نفسي ما الذي يدعو فلاحة مصرية صغيرة السن لذلك. دخلتُ من الممر المحاط بالورود والأشجار، رائحة الورود والمياه المرشوشة تخفف من وطأة الرطوبة وكنت أشعر بأن ضغطي على ما يرام، كانت تنتظرني وحدها في الحديقة، قالتْ لي في تلقائية وببساطة متناهية: "أنا أحب كل أصدقاء "رحيم" ولكن مش عارفة ليه بحبك أنت أكثر منهم". لفظ الحب لدى فلاحي مصر يشمل كل شيء الصداقة والزمالة والصحوبية وأكل العيش والملح، سألتها: "أنت لم تعرفيني إلا منذ ساعات؟". قالت: "قلبي انفتح لك". قلت: "للقلوب أسرار". ابتسمتْ، وغادرتني لتأتي بالشاي وكراسة الحروف.

كانت "صبيحة" تقلب في فنجان قهوتها حين قالت: "ما رأيك في الكويت؟" قلت لها: "بلد صغير جميل، صحراؤه واسعة" قالت: ليس هذا مقصدي. قلت: "لا أستطيع أن أدلي برأي آخر، أشعر بغربة، أنت تعتبرين نفسك عربية وتعتبرينني أجنبيًا، الزواج منكم كزواج صعلوك من أميرة هاشمية وهذا أمر غريب، أسكن في عمارة

يطلقون عليها سكن العزاب، وسمعت أنهم يسعون هنا لبناء مناطق بأكملها للعزاب هذه المناطق ستضم الخدم والعمال والمدرسين، ومادام كل شيء تساوى، ونحن والخدم سواء فلن يضير أمثالي شيء بعد ذلك، ولماذا يقوم مجلس الأمة بمناقشة هذه المشكلة بكل هذا الحماس، مطالبًا بعزل العزاب عن المتزوجين بحجة أنهم فسدة، شيء غريب، لماذا أتيتم بهم من الأصل؟"

قالت: "يبدو أنك من النوع الحاد". ارتفع ضغطي قليلاً وأنا أنكر ذلك وقلت: "هناك أشياء غير صحيحة".

قالت مغيرة دفة الحديث مائة وثمانين درجة: "ما رأيك في الحب؟"

التهبتْ قشرة دماغي وتطلعت إلى شفتها السفلي وقلت: "أحببت يومًا لكني رجل فاشل".

ضحكتْ وقالت "المثقف ليس فاشلاً".

قلتُ لها وأنا أضحك "المثقف، أما أنا فرجل جاهل حتى النخاع".

ابتسمت وقالت: "هل وحشك نهر النيل؟"

قلت لها: "امتلأ بالتلوث والجثث، لم أعد أشرب منه".

قالت: "أنا شربت منه".

سألتها: "ستعودين إليه؟" قالت: "في أجازة نهاية العام، فأنا طالبة في الجامعة".

وقالت "فجر": أنا لم أدخل المدرسة، وفهمتُ منها أنها مطلقة أيضًا، ارتفع ضغطي قليلاً. "مطلقة؟" قالت "نعم" وضحكت وهي تقول وعندي بنت كبيرة، قلت لها: ماذا تعنين بكبيرة؟ قالت كبيرة، عمرها سبع سنوات وكنت أظنها تسخر مني، ولكن الفلاحين لا يعرفون السخرية حين يتحدثون عن أنفسهم، وقالت أيضًا بأن زوجها كان يعمل سائقًا على سيارات الميكروباص على طريق القناطر التحرير، وأن ساقه اليسرى مشلولة وأن نصف وجهه محروق، ومع ذلك طلقها وتزوج أخرى. تطلعتُ في وجهها كان جميلاً هزيلاً قمحاويًا، لمحتُ أطراف أصابعها الجافة وراحة يدها الخشنة، اهتز كوب الشاي في يدي، قالت دون أن تحس بما جرى: طلقني منذ زمن وعملت عند "الست". وأشارت إلى الفيلا واستطردت: "منذ طلاقي، أمي هي التي أخذتني أول مرة إليها وتركتني من يومها، ست طيبة، زي أمي". ولاحظت صدرها يعلو ويهبط فجأة.

قالت صبيحة: "أنا أدرس التاريخ" قلت لها: "تاريخ الكويت؟" ابتسمتْ في خبث وواصلت: "تاريخ الكويت صغير، الكويت تحاول أن تكون لها دور على الساحة العالمية وأن تدخل في كثير من

الاتفاقات الدولية وأن يكون لديها العديد من المنظمات الدولية والإقليمية لتجنب الأخطار التي تحوطها، الكويت ليست مصر".

قلت: "صحيح الكويت ليست مصر، مصر حضارة خمسة آلاف سنة تأكل أبناءها في عنف، وأبناؤها يأكلون بعضهم، الكويت تهدي لكل ابن من أبنائها مسكنًا، ولكل أمير من أمرائها قصرًا وحسابًا في البنك لن ينتهي ولو بعد مائة جيل، أبناء مصر يدافعون عنها في سيناء والسلوم، أما أبناء الكويت فيدافعون عنها في أمريكا والقاهرة ولندن وباريس ومدريد والدار البيضاء".

قالت: "هل هذا ما يسمونه عندكم الحقد؟ قلت لها: "لا بل هذه بعض المواجع" وسألتني ما السبب في كثرة ضحك المصريين" انتابتني حالة ضحك فجائية وأنا أقول لها "إنه ضحك من الهم".

وقالت فجر بأنها والهمّ شريكان في كل شيء كنت أحمل ابنتي على صدري وأحمل الأكل إليه في موقف السيارات وأعود لأعمل في الغيط ثم أذهب للبيت لإعداد الغذاء وأذهب به إليه وكنت أنتظره في المساء، كنت أغسل قدميه بيدي، أمسح عرقه حين يعود آخر الليل، أضع الطعام أمامه، وأقف حتى ينتهي، ينام في السرير وحده، وأنام أنا وابنتي على الأرض، ولم يشفع لي كل ذلك، لم أكن

أحبه لكنه كان أبو ابنتي وكان زوجـي، ومـع ذلـك طلقـني، لا أدري السبب، تزوج من بنت بيضاء سمينة، كان يقول لي دائمًا إنـه يحـب السمان، "ابن الشاذة".

قالت صبيحة: هـل سـافرت مـن قبـل إلى دول أوروبيـة؟ كـدت استلقي على الأرض من الضحك وأنا أقول: ولا عربية حتى، أبعد مكان ذهبت إليه هو "سيدي براني"، ولو لم أكـن ذهبـت إليـه لما كنت جئت الكويت، كرهت كـل شـيء في سـيدي برانـي، فلمـاذا سأحب الكويت أو أي بلد آخر؟

نهضتْ أخيرًا وهي تسوي "جوبهـا" وكانـت الـورود البرتقاليـة تتناثر في الهواء، قالت: "أشوفك"؛ كعادة الكويتيين عند الرغبـة في إنهاء أي حديث، هززت برأسي وكانت عيناها معلقتين بعينيَّ وهي تنزل من على السلم الكهربائي ثم اختفت رأسها تمامًا وأحسست بأنها سقطت داخل قلبي ولن تخرج أبدًا، على الأقل الآن.

أما "فجر" فقد أخذت أذاكر لها حروف الألف والباء وسألتها عـن اسم ابنتها فقالت "نواره" وهكذا كنت أناديها "يـا أم نـواره" أو يا "فجر الصباح"، تبتسم بشكل دائم، أشـعر بأنهـا تحـبني مثلمـا

تحب "رحيم"، تردد دائمًا بأنني قطعة منه، حتى عاد "رحيم" من تركيا بعد أسبوع، أما هي فقد حفظت نصف حروف اللغة العربية، وبدأت في محاولة قراءة الحروف الكبيرة في الجرائد، كنت أضحك حتى أستلقي من محاولاتها، وكانت تضحك معي.

* * *

دخل "الريدي" على المكتبة ممتقع الوجه؛ وأنا متعلق بأحد الرفوف، وقال: "هادخل مخزن المكتبة عندك يا أستاذ سيد". نزلت بسرعة من على السلم الذي كنت أقف عليه بعد أن كدت أقع، اقترب منا "أبو حمد" وسحبه من يده وهو يقول "دِشْ، دِشْ منه"، وأدخله مخزن الكتب في نهاية المكتبة وأغلق عليه الباب بالمفتاح، وقال لي وهو يستدير ليواجهني "هذا المينون، كل أسبوع أو عشرة أيام يخيل إليه بأن هناك من يترصده فيأتي، ويختبئ هنا فأغلق عليه بالمفتاح" ابتسمت، وبعد فترة من الوقت فتحت الباب عليه فوجدته مقرفصًا في أحد الأركان ينتفض كالمحموم، قال لي في خوف" "مشيوا؟" هززت برأسي وقلت له مطمئنًا: "مشيوا". وأنا لا أعلم من هم الذين أتوا ليمشوا. نهض واقفًا واقترب مني

وأخذ يردد كلمات مضغومة عن مجموعة من بلدياته يبحثون عنه ليقتلوه، عيناه التي أكلهما الرمد تدوران بسرعة ولا توحيان بأي شيء، وأخيرًا أشاح بيده في الهواء لـ"أبو حمد" وخرج، ابتسم "أبو حمد" وقال موجهًا حديثه إليَّ: "لن تأتي للغداء عندي؟" قلت له: "أنت تعلم بأننا نتغدى جميعًا في سكن العزاب، أشكرك" وتركته ومضيت نحو الرف الذي كنت به وكان بين يديَّ خطط المقريزي وكنت أقرأ في الجزء الأول: "وأهل الصعيد أخلاطهم أرق وأكثر دخانية وتخلخلاً وسخافة، لشدة حرارة أرضهم من أسفل الأرض".

هل يعرف "الريدي" بأمر الحرارة المنبعثة من أسفل الأرض التي تسيطر على عقول أهل الصعيد حتى أصبح الثأر جزءًا من تكوينهم النفسي والاجتماعي، لا أظن أن "الريدي" يعلم ذلك، ويبدو أن "المقريزي" نفسه كان قد شرب "شيئًا ما" فجعلته يتخيل ذلك، أم أن ذلك كان حقيقة، لا أدري.

* * *

قال "سامح الفوال" ونحن جالسان ننتظر خطيبته: "أعرفها منذ خمسة عشرة سنة". قلت له ليس هناك معرفة تدوم خمسة عشرة سنة، قال كنت خطيبها عرفتها ونحن طلبة في الكلية. لا أذكر الآن لماذا انفصلنا، ربما بسبب الدروس الخصوصية التي كنت أعطيها، ثم تفرس في وجهي وقال: "أقول لك سرًا؟" ولم ينتظر مني إجابة وأكمل "أنا لا أحب الفلوس كما تتخيل، أنا لديَّ من المال الكثير". قلت له في تعجب من صراحته الشديدة: "وما الذي أتى بك للكويت؟" قال: "أبحث عن الراحة". قلت: "في الكويت؟" قال: "نعم في الكويت، فأنا تقريبًا أنام ساعتين أو ثلاث في مصر". ثم سكت قليلاً وقال: أعيش مع أمي وأخي وأختي، أخي وأختي متزوجان، أنا الوحيد الذي لم يتزوج، لقد انتظرت طويلاً حتى تزوج أخي وتزوجت أختي، خطبت كثيرات لكن كل خطوبة كانت تفشل، سألته إن كان يعرف السبب قال ليس هناك سبب محدد، مغالاة أهل العروسة في طلباتهم، أريد امرأة "مريشة" فلن أدفع نقودي هكذا بدون مقابل". قال ذلك ببساطة شديدة جعلتني أشك في قواه العقلية لكنه عاد يؤكد جملته قائلاً: "أنا براجماتي التفكير، إذا كنت سأدفع فلابد أن أجد المقابل". قلت له: "المقابل أنك ستجد زوجة تلد لك أولادك، تعد لك الطعام، وتنتظرك على

السرير، تمسح همومك، تعطيك بـلا مقابـل، امـرأة تشـاركك كـل شيء، ماذا تريد غير ذلك؟!"

قال وهو يبتسم: "تشاركني أموالي، أليس كذلك؟، اسمع أنا لا ألقي بنقودي في الهواء من أجل ذلك، المـرأة الـتي تتحـدث عنهـا لم تعـد موجودة". قلت: "ليس المهم أنها موجودة أو غير موجـودة، ولكـن هذا هو الزواج، وهـذا المطلـوب مـن المـرأة، أي امـرأة". قـال: "لا تعتقد أني لا أريد الزواج، ولكن أمي مازالـت تـرى أن لا أتسـرع في زواجي وكذلك أخي".

كانت ملامحه هادئة تمامًا وتلك الابتسامة الواثقـة الـتي لا تتزحـزح عن شفتيه، ألقمت نفسي حجـرًا وجلسـت أنتظـر، نهـض واقفًـا فجأة، رأيتها تقبل ناحيتنا، امرأة في حوالي الأربعين قال لي "سـهير حـافظ، صـحفية في جريـدة محليـة هنـاك" نهضـت ورحبـت بهـا وسلمت، كانت من النـوع العـادي الـذي لا يلفـت النظـر وحـين تطلعت لحذائها وجدتـه يضـوي، ملامحهـا لا تنبـئ بـذكائها الحـاد، ولكني كنت أشعر بأنها امرأة من النـوع الخطـر، إحسـاسٌ داخلـيٌ ضـرب نـافوخي فجـأة حـين ابتسـمتْ، جلسـتْ وأخرجـت علبـة سجائرها، أخرجت السيجارة وأشعلتها، ونفثت دخانهـا في الفـراغ

فوق رأس "الفوال"، ظلاً صامتين، طلبت قهوة وعصير، وطال الصمت، أحسست بالحرج لكن "سامح" نطق أخيرًا:

"تحبي نجيب الشبكة إمتى؟"

ابتسمتْ وقالت: "على طول كده؟". قال سامح: "خير البر"

قلت: "ألا يمكن أن تطيلا فترة التعارف؟"

قال: "تعارف إيه يا سيدي نحن نعرف بعضًا منذ سنوات طويلة".

قالت وهي تبتسم: "لا أظن"

امتقع وجه "سامح" قليلاً وقال: "لأ طبعًا، نعرف بعض"

قالت له: "متأكد؟"

أجاب: "نعم" وضغط على أسنانه وبدأت ابتسامته في التلاشي.

قالت: "حسنًا، أريد شبْكة بألفي دينار".

نظرتُ لـ"سامح" فلم يبدُ عليه أي أثر للمفاجأة قال: "تستاهلين عشرة آلاف دينارًا". سألت نفسي عن سبب قبوله لشبكة بألفي دينار، ولكن الإجابة أتت سريعًا، صمتَ قليلاً فقالت: "إذا كان كده يبقى متفقين". قال في بساطة "متفقين على إيه؟" قالت: "على الشبكة". قال:"إذا أنا أحضرت شبكة بهذا الرقم فما هو المقابل الذي سآخذه؟" تطلعتُ إليه في غيظ ولم أفهم، بينما ضحكت هي ضحكة عالية وقالت: "ألم أقل لك أننا لا نعرف

بعض". ونهضت وهي تتطلع إليه في سخرية دون أن ينطق بكلمة، وغادرتنا "سهير حافظ" دون أن تشرب قهوتها بعد أن فتحت رأس "سامح" وألقت بقنبلتها فيها فقلبته رأسًا على عقب، وأخرجت أحشاءه بعد ذلك وعرضتها أمام كل العيون، وفي النهاية ابتلعها الزحام بقرب الباب.

نهضنا بعدها بقليل وكان "سامح" يتحدث إلى نفسه، وكنت أنا أضحك بصوت مرتفع ونحن نسير في الشارع الطويل الخالي من المارة. "لا أدري لماذا تركتنا، ما العيب في أن أطلب مقابل للشبكة، أجيب شبكة بألفين دينار، تجيب هي هدية لي بنفس المبلغ، نبقى خالصين، ساعة دهب، ولاعة دهب". قلت له: "أنت لا تدخن" قال دون أن يتأثر: "مش مهم يا أخي تجيب وأنا أدخن". وكان صدى ضحكاتي يتعالى في قلب الشارع، وحسبت نفسي مجنونًا وكان يسير أمامي يكلم نفسه وأنا في الخلف أتطلع إليه ضاحكًا متخيلاً الخزينة التي كان يريد امتلاكها وقد خرج منها جناحان فطارت بعد أن تبرزت فوق رأسه، ومن بعيد كنت ألمح سيارة الشرطة العريضة تسير في هدوء ولكني لم ألمح من بداخلها.

* * *

على شاطئ الخليج وقفتْ "فجر" تضع اللحم فوق الشواية وكان "رحيم" نائمًا على ظهره وكنت بجانبه مستندًا إلى المقعد، أخذت أتطلع للقوارب البعيدة، ولا أدري لماذا تذكرت فجأة صورة الشاب العاري تمامًا التي كانت في المجلة القديمة، وكانت الشمس تضرب كل شيء والحرارة لا تطاق والنسمات التي تأتي لا تكفي لسد فم الاحتراق، نحتمي في ظلال الكتل الأسمنتية الممتدة و"فجر" تقف تحت الشمسية الكبيرة، وكانت هناك بعض الفتيات يرتدين المايوه البكيني، وبعض الرجال المستلقين على بطونهم يبتسمون بلا فائدة أو يقرأون ما لا يقرأ في هذا الجحيم الأسطوري الذي أصبحنا جزءًا منه.

"شاطئ الزور" من الشواطئ القليلة في الكويت التي لا يرتادها سوى الأجانب والأمريكان وبعض العرب والشباب بسبب بعده عن المدينة، يذكرني بمياه "مرسى مطروح" في زرقته وصفائه، في الماء لاحظنا أنا و"رحيم" الولد الذي يحتضن البنت ويقبلها، وقال رحيم: "في عام ثلاثة وسبعين لم نكن نستطيع شرب الماء بعد حدوث الثغرة، ثلاثة أيام وأنا أرقد أسفل دبابة أحتضن جثة زميلي الذي مات إثر شظية في ظهره، ظل حيًا ثلاثة أيام ثم مات قبل أن نستطيع عقد اتفاق شفهي مع الإسرائيليين، كنا نمدهم بالطعام

ويمدوننا بالمياه وكانت الطائرات تحلق فوقنا أربعة وعشرين ساعة". سألته: "انقطعت أخبارك، قلنا مات في الحرب، ثم عرفت أنك هنا في الخليج، وانقطعت أخبارك مرة أخرى، قلنا مات في الخليج". قال وهو يضحك: "في الحالتين موت". ضحكتُ وأنا أقول: "قط له سبع أرواح". ابتسم ثم غاص في صمت طويل، ثم تطلع إليَّ مليًا وقال: "أخبار "فجر" إيه في المذاكرة؟"

أجبته: "تتعلم سريعًا". قال: "تعرف إنها مطلقة؟". لا أدري لماذا صمت، كنت ألمحها تطلع إليه كل دقيقة حين يشرد ببصره عنها، هل تحبه؟ سألت نفسي كثيرًا، قالت لي إن رحيم كان متزوجًا من مصرية تعيش في القاهرة، وقد طلقها لسبب لا تدريه، ولما سألته عن السبب ضحك طويلاً لم يكن زواجًا مضبوطًا، كان زواجًا ملفقًا، لقد تم سلقي في يوم وليلة بمعرفة أمي وعمتي، وحين جلست في الكوشة أدركت بأن هناك محاولة تقودها بعض نساء عائلتي لاستئناسي، رأيتُ نفسي جالسًا كقرد، أتخيل ما حدث وقتها كأنه الآن، كنت أرى ذيلي يكبر ويكبر والجميع يضحك على "عبد الحميد بن عبد الرحيم" القرد الذي يريد أن يتزوج، لعنتُ أمي ولعنت عمتي، وحين أفقت بعد أول لقاء لي بها في السرير أدركت بأنني الذي تزوجت قردة "شمعت الفتلة" وطلقتها، لم تكن

موضوعًا يستاهل الاستمرار، كانت فضيحة، مالي أنا والزواج الآن، النساء آه من النساء، مربط فرس تعاسة الرجال في هذا العالم، اسمع يا "بن العبد"، خلق الله المرأة لثلاث للسرير وخدمة الرجل وفي النهاية قتله. كنت أعجب لسخريته حتى من ذاته التي ما تفتأ تتمرد عليه فيهجر كل شيء فجأة دون أن يكمل عملاً واحدًا بدأه.

وضعت "فجر" أمامنا أطباق اللحم المشوي، قال وهو يشير إلى اللحم المشوي "هذا هو المشاش على الطريقة الحديثة"، وأشار إلى النساء ذوي المايوهات وقال "أما ذلك فهو المشاش على الطريقة الأميريكية".

لعنة الله عليك يا عروة، ضحكنا طويلاً، بدأتُ أتفحص الوجوه حولي أثناء التهامنا لقطع اللحم، وعلى البعد رأيتها "سهير حافظ" جالسة مع هذا الأمريكي الطويل، كانت ممسكة بورقة تدون فيها شيئًا ما، ولاحظتُ بعد دقائق أنهما راحا يتضاحكان ويتقربان من بعضهما، أشحتُ بوجهي ناحية الفتيات، فرأيت شابين كويتيين بينهما وسرعان ما انطلق جميعهم إلى المياه التي كانت تفور، انتبهتُ فجأة على "فجر" ووجهها ملتهبٌ من الحرارة حتى كاد ينفجر، وعيناها اللوزيتان ممتلئتان بالدموع وحين لاحظتني خبأت عينيها في الجمر المقدد أمامها، وسألت نفسي "هل

تحب رحيم؟"، وحين تفرستُ في وجهه الخالي من التعبير يتابع السماء بلحثًا عن شيء ما غير موجود، وعدت أحلق في المياه. قال لي فجأة: ما رأيك أن تسمع شيئًا ما، شيئًا خاصًا يحكي لحظات ماتت، أخرج شريطًا من حقيبة بجواره ووضعه في الكاسيت الراقد بيننا، ونهض وهو يضع قبعة فوق رأسه قائلاً: "سأتمشى قليلاً" تابعته بعيني وعين "فجر" تلاحقه، وحين انتهى الشريط أدركت مأساته التي عاشها هنا وحيدًا، وعلى البعد كانت هناك دورية بحرية تسير في هدوء وكان يقف فوقها شابان صغيران في السن يبتسمان، وكان الجميع يمرح، ودماء صاحبي يشهدها الجميع تنفجر فتغطي الرمال اللاهبة.

(٨)

"سوسن" والأحلام

الروح تطلع، فليقل لي من يعرف إلى أين؟

في المساء خبطتْ على باب الأستاذ "عبد العظيم" مشرف السكن، وبعد دقائق فتح الباب، وكان يرتدي روب حمام من الستان الأسود، واضعًا منشفة كبيرة فوق رأسه بينما تدلت نظارته الطبية ذات الإطار الذهبي المعلقة في سلسلة ذهبية أيضًا فوق صدره البارز، قال مهللاً "تفضل" وهو يبتسم ابتسامة كبيرة وفتح الباب على آخره، لكني ترددت في الدخول، فأقسم بالعظيم أن أدخل، جلستُ في الصالة الواسعة، أحضر لي مشروب (شاني) الأحمر اللون وجلس بجانبي وسألني "هل هناك شيء؟" أخبرته أن المصعد لا يعمل وأننا في حاجة إلى تصليحه، كما أن مكيف الصالة على الرغم من طلبي منه إصلاحه للمرة العشرين لم يتم إصلاحه، قال وهو يبتسم ابتسامة لزجة "لقد أرسلتُ إليهم في "مراقبة الإسكان" وغدًا أو

بعـد غـد سـوف يـتم إصـلاحه، شـكرته أيضًـا للمـرة العشـرين، وحاولت النهوض لكنه سألني قبل أن أرفع قـدمي: "أسـتاذ سـيد، هل أنت متزوج؟" ولما نفيت له ذلك لا أدري لماذا ابتسـم، ولكنـه قال: "أنا متزوج" سألته: "ألـديك أطفـال" قـال: "لا، أنـا عـريس جديد، زوجتي مدرسة أطفال عمرها خمسة وعشرون عامًا". تطلعتُ في وجهه الأبيض السمين، شعره مخضب بالحنـاء، وقـال بأنـه سـافر لكثير من الدول العربية، اليمن والسعودية وليبيا، وأنـه حـاول أن يصطحبها معه، ولكنها رفضت فتركها مـع أمهـا، ثـم ربـت علـى فخذي وقال: "لماذا لا تأتي لـتجلس معـي قلـيلاً، أشـعر بالوحـدة أحيانًا". لدغني العقرب فجأة فنهضت فزعًا وقلـت لـه وأنـا ألملـم نفسي: "إنني تقريبًا أدخـل المنـزل لأنـام". وانطلقـت نحـو البـاب سريعًا، بان عليه القلق، لكنني كنت قد اقتربت من الباب وأكـدت عليه موضوع إصلاح المصعد وكان الـروب منحسـرًا عـن فخذيـه السـمينين، ولاحظـت لباسـه الـداخلي الأسـود، ولكـني تعاميـت وأغلقت الباب خلفي ولم يتحرك هو من مكانه.

* * *

حين دخلتُ الشقة كان "سامح" و"نزار" يقفان في الصالة، "نزار" يدور حول حقائبه، عيناه متورمتان، قال "سامح" إن "نزار" قد تم "تفنيشه" اليوم، شعرت بانهيار مفاجئ وارتفاع حاد في ضغطي وطنين أذني يشتد، ولما سألت عن السبب ولماذا اختاروا هذا الوقت بالذات، قال بأنهم استغنوا عن نصف مدرسي اللغة الفرنسية، وقال بأنه لا يدري ماذا يفعل في الشقة التي اشتراها في بعلبك ثم أنه لم يدفع بعد ثمنها بالكامل، ودار حول نفسه وأمسك برأسه ثم سقط.

* * *

في المستشفى قالوا لنا بأن "نزار" داهمته أزمة قلبية.

في السابعة والعشرين وأزمة قلبية!، ارقص يا طائر الموت حول الأجساد الصغيرة، ها هم ضحاياك يتساقطون كالذباب، الأنبياء يموتون صغارًا.

وحين زرته في المساء كان يبدو في حال أحسن، لم يتكلم، نظراته تائهة وخرطوم بلاستيكي شفاف يربطه بالحياة اللئيمة، زرته في اليوم التالي وتكلمت معه قليلاً. مر أسبوعان، قال بأنه يجب أن

يسافر في الحال وإلا سيموت، وأصر على ذلك وكنت في وداعه في المطار، أراه مبتهجًا وقال بأنه سيسترد جزءًا من الثمن الذي دفعه في الشقة وأن لبنان تحت الضرب والحصار جنة بالنسبة لأي مكان آخر في العالم، ترنح قليلاً لكنه تماسك في النهاية، وصعد الطائرة وخرجنا من المطار.

في الطريق قال "سامح الفوال": كنت قد بدأت أحبه.

لا أدري لماذا شعرت بهذا الإحساس للمرة الأولى منذ جئت، كان كل شيء كئيبًا وغير مريح، كانت الشمس قد ذهبت تاركة أثرها الحارق، ولم يظهر القمر وكانت السيارة تنحني على الطريق الدائري السادس، وكنت أرى السائق يخرج لي لسانه وقلت بأني أتوهم، ولكن لسانه كان متدليًا على ذقنه فعلاً وقال في لهجة بدوية: "يا لخو، ليش تركت مصر؟" ولما لم أجد إجابة شافية لي أو له، عدت أبحث عن القمر الضال ثانية في هذا السماء التي ليس لها عنوان.

* * *

زارني "محمود" في المساء واتفقت على الذهاب إليه يوم الجمعة، ولكني لم أذهب فوجدته أمامي بعد انقضاء ميعادي بنصف الساعة، يجر خلفه اثنين من العمال الصعايدة وكانا متشابهين بدرجة غريبة وجلس الثلاثة قدمت لهم شايًا وذكر بط كان قد وصلني من القاهرة، فانقضوا عليه وهم يتضاحكون حتى أصبح أثرًا بعد عين، قال "محمود" :إن هذين الأخين في الكويت بجواز سفر واحد. ولما سألته كيف قال بأن الأخ الأول يسافر بجواز السفر ثم يعيد إرساله لأخوه الذي يدخل به من المطار هنا وهناك في مصر، ولما سألت عن السبب في ذلك، قال: أحدهما هارب من الجيش، والثاني فشل في الحصول على الإقامة. نظرت إليهما وأنا أشك في كلامهما فأخرجا الجواز. وقال لي بعد أن انتهينا من الأكل :أريدك أن ترى شيئًا معي الليلة. فتعللت ببعض التعب، وأخيرًا وجدت نفسي معه في الطريق إلى السالمية، وهناك في أحد الشقق التي تقع في الطابق الأول من عمارة مكونة من ثلاثة طوابق، وجدت حوالي عشرة أشخاص من السائقين والعمال، الوجوه منتفخة، على بعضها آثار نوم، وعلى البعض الآخر آثار تعب، والبعض تسكنه اللامبالاة، علمتُ منهم أن بعضهم يعمل محاسبًا أو مديرًا لإدارة ما في

القاهرة، لكنها لقمة العيش التي اتفقوا على أن يبرروا بها كل شيء يفعلونه جميعًا.

لقمة العيش أيها السبب الضال بيننا جميعًا، نبرر بك كل ما لا نستطيع تبريره، ونهرب بك من أية أسئلة فضولية أخرى قد تثار، نقطع بك كل أوصال علاقتنا بالآخرين.

أطفأوا الأنوار وأغلقوا الستائر وفتحوا التليفزيون ووضعوا شريطًا في جهاز الفيديو وسْط ضحكات مرهقة وزاعقة في نفس الوقت، وظننت أن ما رأيته في تلك الليلة كان كابوسًا، ولكنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذه الأفلام، كان الفيلم عن امرأة هجرها زوجها فارتمت في أحضان عشرات الرجال، الجنس يخرج لي لسانه في كل لقطة في الفيلم، ولما لم أحتمل نهضت وتقيأت كل ما أكلته، أعتذر لي "محمود" فقُلت له: لا عليك، كان ضغطي قد ارتفع بشدة وطلبت الخروج، قال بأنه يلعن نفسه وأنه كان يظن بأن ذلك سوف يسعدني، ولكني كنت قد فقدت القدرة على الحديث، طلبت منه توصيلي للمنزل وتركني هناك بعد أن اطمأن عليَّ ورحل.

* * *

في السرير لم أستطع النوم، تطاردني صورة المرأة العارية في كل ركن من أركان غرفة النوم الأربعة، ونهضت أخيرًا لأقف في الشرفة كانت أصوات المكيفات تهدر، الصوت الوحيد المسموع هدير المكن أما القمر فما زال مختفيًا، وأطلت "سوسن" بعد لحظات معها "سُنسُن" و"صلاح". قالت سوسن يومًا وأنا أمسك بيدها" "بتحبني؟" أقسمت بأني لم أحب غيرها وأخبرتها بما قاله لي "خوان" فضحكت طويلاً وقالت لي "إنه يحبني أكثر منك" ابتسمتُ ولم أعلق، وقالت" أعلم أنك لا تحبني". قلت "أنت مجنونة لو فكرت في ذلك". قالت "لا تكذب على نفسك وعليَّ أيضًا". قلت وأنا أشعر بزلزال يقلبني "مستحيل، قالت وعيناها تتفحصني في حنان "ستنساني في أقرب فرصة".

وفي الجيش لم أنسها (ففي الليلة الأولى دلق الشاويش الصغير السن طبق الطبيخ على الأرض وألقى لي برغيف خبز ككلب وصرخ في وجهي في لؤم "كُل"، وأطلق ضحكة عاتية)، أنا فقط لم أرد على خطاباتها كما أنني لم أنزل مصر سوى مرتين لم أرها فيهما، والآن بعد مرور عامين تقريبًا على آخر لقاء لنا "هل لازلت أحبها؟" سألت نفسي كثيرًا عن السبب، هل كان من الممكن أن أحب في هذا الوقت؟ كنت أعلم بأنها تحبني ولم تخفِ هي حبها لي

في أي لحظة مرت بنا أو علينا، لكني أبداً لم أحبها مثلما أحبتني، تبحث عني حين أغيب، تترك لي رسائل وعلامات مع كل الذين أعرفهم وعلى كل الطرق التي سرنا فيها، رائحة عطرها لا تغيب، ولكن ها هي قد غابت، وتهت أنا في طرق غريبة، فلماذا أفكر فيها الآن، ولماذا أبحث عنها، لماذا نسيتها طوال عام أو يزيد، ولماذا أتذكرها الآن، هل هي الوحدة، الفقد، الحنان، الذي راح مع أمي، هل كنت أجد فيها أمي، هل أريد الاعتذار لها عن كل ما سببته لها من آلام، ماذا أريد؟

فلتلق بنفسك من قمة الجرف ولتمت ولتتعفن جثتك وليرجمك الناس كشيطان بعد ذلك، فهذا أقل مما تستحق.

بحثت عن القمر ولكنه مثلما السماء كان يبدو قد غير عنوانه، وزارني الولد العاري في المنام هو والمرأة التي هجرها زوجها، و"نزار" وهو يترنح من الحب في كهوف بعلبك، وكنت أنا الوحيد الذي تُرك في هذه الصحراء ليلقي مصيره المحتوم.

* * *

تلقيتُ خطابًا من "سُنسُن" وآخر من أبي، سألت نفسي لماذا ترسل لي "سُنسُن" خطابًا، علاقتنا كانت هامشية، رجل وامرأة قضيا بضعة ليالٍ معًا، وتذكرتُ أنها بكت ليلة سفري، ولم يدر أحد منا السبب، لقد تعارفنا لليال، ثم أنها تنام مع "صلاح" كما نامتْ معي، فماذا تريد؟ وحين فتحتُ الخطاب لم يكن هناك شيء من ذلك، لمحت كلمة وحشتني وبعض عبارات الحب البسيطة، كانت الكلمات نقية بشكل بدائي، ثم ثرثرة نسائية، وختمتْ الخطاب برغبتها في الحضور للكويت والبحث لها عن عقد عمل لتكون بقربي، فابتسمتُ ومزقت الخطاب وألقيته في سلة المهملات بجانب السرير. أما أبي فقال إنه اشترى شقة بالمبالغ التي أرسلتها، وإنه على وشك الانتقال إليها مع أخوتي، مع توصية بإحضار كاسيت وتليفزيون ملون إن أمكن، ولا تنسى طلبات أختك الصغيرة.

أغلقتُ الخطاب ورميت به في قاع الدرج، وتمددت على السرير، لحظات، نهضت وعدت أنبش في سلة المهملات على خطاب "سُنسُن" ولملمته مرة أخرى، وسألت نفسي لماذا أحسستُ بالفشل معها رغم انبساطها كما ادعت؟ ولم أجد إجابة ربما للمرة الألف، خطها ليس جميلاً مثلها، حروفها مبتورة شعرت بأنها تحسس على الورقة، واستلقيت مرة أخرى وأغمضت عيني، كانت سُنسُن عارية.

كنا في الصحراء نقف نتطلع إلى السيارات التي تسير على الإسفلت البعيد وكانت قلوبنا الصغيرة تموت، في أيامنا الأولى كنا دائمًا ما نأخذ الخدمة الليلية الوسْطَى في الكتيبة وكانت تنتهي في الثانية فجرًا وكان شاويش الكتيبة يتعمد إيقاظنا في الثالثة فجرًا باللق السريع على أبواب الملجأ أو يرفسنا في ظهورنا، وكنا نقف فاقدي الوعي تمامًا، يأمرنا بتنظيف الحجارة من القار الأسود العالق بها في الليالي المظلمة، أو يحلو له أن يبحث فينا عمن يجيد الرسم ويرمي إليه بقطعة من الفحم ويأمره برسم شجرة نخيل على الحائط، وحين ينتهي من يستطيع الرسم من رسم الشجرة يأمرنا جميعًا بصعود الشجرة والإلقاء إليه بالبلح.

* * *

ابتسمتُ على الرغم مني، ولم يكن في السماء قمر، في تلك الليالي زاد ارتفاع الضغط لديَّ فكنت أتقيأ، لقد تقيأت على كل صخور صحراء سيدي براني، ومع ذلك لم أشف، "سُنسُن" رغم لقاءاتنا الجنسية لم أشعر معها بارتفاع في الضغط، بعض الفشل ربما بسبب قصر المدة، وربما بسبب وجودنا في العراء، كانت تعض في كتفي وأظافرها ناشبة في ظهري وكانت سعيلة وهي تردد في آلية

كلمة "أحبك"، وأبناء المدينة كلمة "أحبك" لـديهم لا معنـى لهـا، تلقـى مثلمـا يلقـون ببـولهم وبـرازهم في أي مرحـاض، كلمـة استهلكت لتعني في النهاية اللاشيء، أما "فجر" ذات راحـة اليـد الخشنة فكانت فيضًا من الحنان والحب الدافق، ولكـن هـل يراهـا "رحيم" مثلما تراه وألحه في عيونها، هل يرى هـذا الواقـف علـى لسانها البدائي، ولكني تعودت مع الوقت على علاقتهما الغريبـة، كانت تقدم خدماتها له إلى الحد الذي كان يشعره بالاختناق، يتـذمر منها أحيانًا، ويتمرد على خدماتها له، وحين تبكي كـان يعـود إليهـا سريعًا فاتحًا باب الأمل في شيء لن يحدث، أحيانًـا أخـرى كـان زوج عمته يتذمر من خدماتها لـ"رحيم" ولكـن لسـانها الطويـل كـان يجعله يتراجع سريعًا عن كلماته هو الآخر، تقدم خدماتها لعمته في الصباح، أما "رحيم" فكان يحصل على كل ما يريده منها حين يعود من عمله، ولم تكن تهتم بأحد آخر، ومع الوقت تعود الجميع علـى ذلك، وحين رحت في النـوم زارتـني امـرأة الفـيلم الأزرق والولـد العاري الذي لم تتم طهارته، وكانـت هنـاك العديـد مـن الفـيلات والقصور التي تلمع خلفهما.

* * *

لم أكن قد رأيتها في زياراتي المتعددة لـ"رحيم" ولكني رأيتها اليـوم "جاكي" المربية الفليبينية خريجة الجامعـة الـتي تزوجـت شـهرًا ولم تعد للفلبين بعد ذلك.

- (جود مورنينغ سير)

كانت الحروف الأخيرة تتآكل على طرف لسانها..

- (انت مستر سيد فريند مستر رهيم)

- نعم يا ستي أنا الفرينـد بتـاع مسـتر رهـيم وأبـو مسـتر رهـيم، وكنت أظنها في العشرين أو في الثامنة عشرة حـين رأيتهـا، ولكـن حين قالت إنها خريجة جامعة ظننـت أنهـا في الرابعـة والعشـرين، وحين علمت أنها لم تنزل الفلبين منذ ثلاثة سنوات قلـت إنهـا في السابعة والعشرين، وحين قالت إنها متزوجة منذ أربـع سـنوات لم تر فيها زوجها سوى شهر واحد، قلـت لهـا غلـب حمـاري يـا بنـت الجنس الأصفر، ولم تقل لي عمرها أبدًا. بنطلون جينز وتي شـيرت قطني أبيض طويل وشعر ناعم معقوص ملقى إلى الخلـف، وقالـت إن "فجر" علمتها الكثير من الألفـاظ والأكـلات المصـرية، وأنهـا (تهب الفول والتأمية والأدس اللي بتأملـه "فجـر") وقالـت لـي "فجر" وهي تضـحك وتغمـز لـي "دي بتعـرف تشـتم كمـان". وفهمت من رحيم أنهما هي و"فجر" كثيرًا ما يتشاجران ولكنهما

لا يتماديان في ذلك، وأن الصداقة بينهما متينة رغم كل الفروقات التي بينهما.

طلبتُ من "جاكي" أن تعلم "فجر" الإنجليزية فقالت "ألمتها الإنجليزية، ألمتها" وابتسمتْ، وقالت إنها من قرية بعيدة في قلب الفلبين، وقالت إنها تحب "ماركوس وزوجته"، فلما أخبرتها أن "ماركوس" لص قارح قالت لي نعم، ولكن نصف الشعب على الأقل يحبه. وبكت طويلاً حين هرب إلى أمريكا وحين رأيتها ظننت أن أمها قد ماتت.

وكان سكن "فجر" و"جاكي" ملاصقًا لغرفة "رحيم"، وحين سألت "رحيم" سؤالاً بريئًا عن "جاكي" صمت ونظر لي في عتاب واحترمت صمته، ولم أفتح سيرتها بعد ذلك ولكنه لم يصمت طويلاً.



(٩)

"صبيحة" في الأمام و"سوسن" في الخلف

قال الشيخ "لعنة الله على من له وجهان"

سألته: فما قولك في الذي بلا وجه؟

أسأل نفسي للمرة المليون، "لست في حاجة إلى أن تسأل نفسك فقط، أنت في حاجة إلى أن تشنق نفسك، هه، أنت أجبن من ذلك" هل أنا خائن؟ وإلا ما معنى أن أترك حبيبتي هكذا، "حاولت البحث عنها"، هراء، كل ما سأقوله هراء وكلام ولغو وسفسطة فارغة لا شأن لي بها ولا شأن لها به، لو أنك حاولت لوجدتها، ولكنك كنت تتمنى ألا تجدها، بكل خسة أعلنت لها أنكما لا يمكن أن تتزوجا، لا أمل لكما في استمرار هذه العلاقة، شهدتْ أرصفة ميدان الدقي، نهاية العلاقة التي ولدت فوق أرصفة كوبري الجامعة. بعد ثلاثين يومًا في معسكر التدريب خرجتْ لتقول لها يجب أن أقطع علاقتي بك، لقد استسلمت بكل سهولة لمشاعر العدوانية والعدمية التي تم زرعها داخلك هناك، هل هذا صحيح؟

ما المشكلة التي سببها لك هؤلاء الذين كانوا يربطون رؤوسهم بفوط كاكية باهتة، حين يأتي الليل، ويقومون باغتصاب كل شرفكم وآبائكم وجدودكم، هؤلاء الجهلة غير المتعلمين الذين ألقي بهم النظام الذي تنتمي إليه، ليقوموا بقتل المتمرد القابع داخلكم، ماذا كنت تفعل في مظاهرات الجامعة والسعيدية، وماذا كنت تفعل هناك، هه، أصبحت لا شيء، رأس تأكل وتنام وتحلم بالنساء، أما علاقتك بالفعل، بالوطن الحقيقي، بآلاف المسحوقين فقد انتهت واندثرت، هل مازلت تتحدث عن الشرف، أجب.

ابتلعت سؤالي وجوابي، وأنا أقترب من "صبيحة"، كان عليَّ أن أفكر بشكل آخر أكثر انتهازية، عليّ أن أقتل صوت "سوسن" الزاعق داخلي، صوتها الذي يجعل دمي يفر من عروقي، ويجعل خلاياي كلها تتشابه، لا فرق بين خلية الدماغ وخلية فتحة الشرج. فوق شاطئ الخليج، الشمس الحمراء توشك على الأفول، تمتد يدها، معها يدي بعيدًا عن العيون، أشعر بأني أحب من جديد، "صبيحة" العربية التي تحمل صفة "البدون" الشابة ذات العيون الواسعة السوداء وسيد العبد؛ المصري الخائن، صاحب الصولات النسائية الخائبة، والتراث الدامي، والقلب الجاف، والعين

الزجاجية، والجفون المتصلبة، والألم الناشع في محيط الروح، والهزيمة النهائية. هل يمكن لـ"صبيحة" العربية أن تزيح كل ذلك؟

الغروب وهي وأنا، بعيدًا عن العيون، تتكلم عن بلدها، وعن أمها وعن أخيها، تتحدث منطلقة لا يوقفها شيء، وأسمع أنا ما تريده وأصمت، ثم تصمت كما بدأتْ، كلانا يحتاج للآخر يا "صبيحة"، أنا بلا أم وأنت بلا أب، أنا بلا ذات وأنت بلا أخ، أنا بتراثي العنيف وأنتِ بوجودك الواضح، أنتِ وأنا كلانا ليس له إلا الآخر.

"هل أحببتِ من قبل؟" سألتها وأنا أتشرد بنظرتي بين المياه الرائقة والسحاب المختفي والشمس الغاربة، نظرتْ وشردت ونطقت أخيرًا "لا"، إذن كيف عرفتِ أنك يمكن أن تحبيني؟

لا تسألني، أتى الحب في هذه اللحظة، ربما كنتُ أحتاجه بعد أن شعرت بأن كل شيء حولي يذهب ويختفي.

لكن أنا مصري يا "صبيحة"، مصري، هل تفهمين، مصري يسبب المشاكل دائمًا لذاته ولمن حوله.

نظرتْ إليّ في عنف "هل تريد أن ننهي ذلك؟" أجبت بنفس العنف "نعم يجب أن ننهي كل ذلك".

وقفتُ على الشاطئ وحدي بعد رحيلها الغاضب "لا أريد أن أرى

وجهكَ بعد اليوم" ابتسمتْ وأنا أردد لنفسي "أنا بلا وجه يا "صبيحة"، بلا وجه تمامًا، وربما أكون بلا روح".

* * *

أغيب أيامًا وأعود لأتذكرها، تمسك بتلابيب ذاكرتي لا تفارقني، أحترق لابتعادها، ما الذي دعاني لقول ما قلت، ما هو نوع هذا الجنون الذي علق بي، هل سأفقد سوسن مرتين، سوسن وصبيحة؟ ما الذي يجمع بينهما؟ وما الذي يفرق بيني وبينهما؟ ما تلك اللعنة التي ألقيت فوق رأسي؟ ومن الذي ألقاها؟ ومتى وأين وكيف؟ أراوح في مكاني منذ قديم الأزل، فلا أنا هديت ولا أنا اهتديت.
سألني الصعلوك الأكبر إذا ما كنت أحبها، قلت له لا أدري، ضحك وهو يقول "ألن تنتهي سلالة اللا أدري؟" ابتسمتُ وقلت "لا أدري"، وانجرفنا نركض فوق الإسفلت، نرفع صولجان الهزيمة فوق هاماتنا المسحوقة بفعل الزمن القادم، ورياح اللامعنى التي تعبث بعيوننا، هو وأنا بعد كل تلك السنوات مازلنا نقاتل ذباب وجوهنا المحروقة.

* * *

كنت أسبح في بحر العرق ظهرًا، أستلقي على السرير في خمول، أطالع ترجمة جبران لقصيدة لأليوت، رنين التليفون لا ينقطع، أتثاقل وأمد ذراعي وأنا ألعن هذا المتطفل في وقت الموت في الكويت، يأتي صوتها باكيًا، "ماذا حدث" أجابت "لا شيء، أردت فقط، أشعر بأني..."، ترددتْ ولم تكمل، أغلقتْ التليفون، وضربتُ أنا أخماسًا في أسداس، عدت أطالع كلمات ت.س.أليوت:

(لأن هذين الجناحين ما عادا جناحين للطيران.

بل مجرد مروحتين تضربان الهواء.

الهواء الذي هو الآن جاف جدًا وضئيل.

أجف وأضأل من الإرادة.

علمينا كيف نجلس ساكنين.

صلي من أجلنا.

صلي من أجلنا نحن الخطاة الآن وفي ساعة موتنا.

صلي من أجلنا الآن وفي ساعة موتنا).

* * *

علينا الآن يا "صبيحة" أن نضع النقاط على الحروف في علاقتنا، هل هناك شيء آخر؟ هل يمكن أن نترك مساحة للحب؟ قررتُ أن

أذهب إلى مصر لأسبوعين، هذا كل ما لديَّ أريد الاطمئنان على أبي، خاصة بعد سفر "رحيم" المفاجئ مرة أخرى إلى تركيا، ومادام سيغيب أسبوعين فلا مانع من ذهابي أنا الآخر، طلبتها وعلى التليفون أتاني صوتها فرحًا، وراح كل ما بيننا من حديث سابق قالتْ سآتي معك، ماذا تفعلين، أريد رؤية أمي.

في القاهرة، ليلاً كنتُ أنا وهي، قالت:

- أريد رؤيتها من خلال عيونك.
- أنا لا أرى فيها إلا كل قبيح.
- القبيح في عيونك، جميل في عيوني.
- حسنًا ها هي بولاق الدكرور المزدحمة ببشر لا ينتهون، وبكثير من البنات بلا غشاء بكارة، وها هم البلطجية وقُطَّاع الطرق وباعة المخدرات، وها هو الهرم بنسائه الفاتحات، وها هي السيدة زينب، خلفها ستجدين المدبح، المدبح المقدس لأفواه المصريين، وها هم المصريون، شعب قاتل كل الغزاة الأجانب ولم يستطع أبدًا أن يتغلب على السوسة الراقدة داخله، هل رأيتِ المتحف الفرعوني، هل شاهدتِ أجدادنا، ها نحن الآن نعبث بكل هذا التاريخ، يشاهد العالم ما كنا عليه منذ خمسة آلاف عام، لكننا الآن مطموسون فلا

يستطيع رؤيتنا أحد، هل تستطيعين قراءة الجرائد المصرية، ستكتشفين الفساد الكامن في كل شيء، الصغير والكبير، وإذا كان بيننا شيء جميل فنحن على استعداد لتشويهه ألف مرة.

ها هي عيوني القبيحة تكشف لعيونك الجميلة ما خفي من أمرنا، ضحكنا يأتي من بؤسنا، ويبدو أننا سعداء بهذا البؤس، وإلا لن نجد ما نضحك منه أو عليه، الأمل، نحن الشعب الذي أدخل كلمة الأمل في قاموس البشرية، ومع ذلك نحن بلا أمل في أي شيء.

هل تودين سماع المزيد، هيا نرى نهر النيل، الليل يهرس الجميع، سيارات وأضواء، لكن هذا الذي لو ثناه مازال يتلألأ يخفي نزيفه الدائم ويشع في عيوننا لنتمسك بشيء ما، هل مازلتِ مصرةً على أن تري القاهرة من الداخل؟

- نعم.

في حضن الهرم انغمسنا في قبلة طويلة، احتضنتني طويلاً وفي النهاية قالت: "نتزوج، لا يمكن أن نستمر هكذا"، أصابتني المفاجأة في الصميم.

كان "صلاح" معنا وصديق له حين قمنا بعقد القران لدى مأذون الدقي، وتركَنا الجميع في تلك الليلة في الفندق.



(١٠)

تقلباتي مع "سوسن"

قال الشيخ "نعم أعرف موطن الروح"
فهل قلت لي أنت أين موطن الجسد؟

أتطلع إلى النجوم ولا نجوم، إلى السماء ولا سماء، إلى قلبي، اندثر وراح، رياح مترية تعبث هنا وهناك، تتجمع الذرات المشتتة لتشكل صورتها الحاضرة في مكان ما من الروح المتعبة.

هكذا حدثني الصعلوك الأكبر في بلاد العرب، ثم فلجأني "هل سمعت الشريط؟" قفزتُ داخل عينيه، "هيام" ومن غيرها.

"هيام" التي ماتت، أم "رحيم" الذي مات؟ هيام التي قُتلت أمام عينيه في سلة شتوية على شاطئ الإسكندرية، هيام التي قالت له ألف أحبك، لم يكن بالشريط يا "رحيم" غير كلمة واحدة، حب ملك الجوانح وترسخ في الأفئدة، وطلعت روحه في سلة شتوية لتسكن روحك وحدك، فأنت القاتل، أنت المقتول.

ماذا تريد مني أن أقول؟ ما الحب سوى ذكرى تبقى، والذكرى لا شيء، واللاشيء نحن، المبعثرون في وديان الجميع، اللاشيء هو نحن، القطيع، اللاشيء هو أنت، هو أنا هو "هيام"، هو "سوسن"، هو أمي، هو اللحظات التي مضت.

ماذا تريدني أن أقول؟ فلنحرق أنفسنا وليس تاريخنا فقط كما تحب أن تحدث، ليس فقط تاريخ القلب أو العقل أو الجسد، هذا التاريخ الذي ينقلب علينا فلا ندري بأي أرض نكون أو بأي موطئ كنا، في اللحظات الأخيرة لا يوجد سوى جسد يذوب، أما القلب فقد ذاب منذ زمن طويل، وأما العقل فقد انفلت لا يعي، ويصبح الوعي مثل تلك الذرات المتشابكة والمتلاطمة، تلك الذرات التي تحضر فنموت نحن، إما نحن أو تلك الذرات المتشكلة على هيئة وهم قديم، وهم يستمد وجوده من قلب عاطل، وعقل مكتوم وجسد ينوء بجراح مفتوحة نسكب فيها ملح خيالاتنا السقيمة، فلنلتهب ولتتحطم خيالاتنا إن كنا نبغي المزيد.

هل تسألني ماذا قالت هيام ؟ قالت ما قالته سوسن في خطابها الأخير، هل تعرف سوسن؟ هي هيام، هي الغائب الحاضر، هي الغائب موتًا أو هجرًا أو فقدًا أو ضياعًا، هي الحاضر في عمق عمق خلايانا الميتة، وقلوبنا التي تموت.

هل تريد أن تتذكر؟ تذكر وافتح كل جروحك ليغمس فيها العالم قضيبه الأنثوي الماسخ، افتح كل جروحك المدفونة تحت جلدك المحروق في حرب ثلاثة وسبعين، بعد الألف، بعد المئة ألف، بعد المليون، ولتقرأ كل الفاسد من أيامنا الماضية والآتية.

قالت قبل أن تموت: "إن طفلك في أحشائها يتحرك". ومع ذلك أخذت طفلها وراحت في تلك السدة الشتوية، أمام عينيك وحدك، لقاؤك الأخير بها كان لتشهد موت البقية الباقية من القلب والروح؛ إن بقيت هناك روح، بعد موت الجسد هناك تحت دبابة في صحراء قاتلة، هل كنت تظن أن بإمكانك إحياءه معها، ها هي اعتصرت ما تبقى منك، وأخذته معها في رحلة اللاعودة، ولم يبق منك سوى عينان تقدحان شررًا وجنونًا.

ماذا تريد مني أن أقول؟ فلأصمت ولتصمت، لنشاهد معًا في هذا الليل المقيت الغربان وهي تأكل ما تبقى منا، وتلقي بفضلات الجسد، مشاشنا أنت و"هيام" وطفلك و"سوسن" وبعض مني وبعض من "فجر" وبعض من "نزار" و"زكريا" و"ميشيل" و"مجدي مينا" وحتى "الشاويش سلامة" في صحراء النفط الأسود العظيمة.

* * *

وصلني خطاب من "مصطفى عبد العليم" مدرس اللغة الإنجليزية الذي تم ترحيله، فوجئتُ بخطابه وكان ذلك قبل سفر "أم سالم علي" إليه، ترى ما الذي ذكره بنا، وسألت نفسي ترى ما الذي يمكن أن يكتبه، فتحت الخطاب، بدأ بآخر نكتة في مصر الآن، وانتهى إلى السبب في ترحيله، وفي المنتصف قال إن هناك مظاهرات جامعية وأن الدراسة مؤجلة. وتحدث عن الغلاء وخطف الأطفال والخيانات الزوجية والأزواج الذين تحشى بهم الأكياس البلاستيكية هذه الأيام، ولكنه قال بأنه مبسوط على أية حال، وقال بأنهم أطبقوا عليه وهو مع "أم سالم" في السيارة السوداء "الفان" في ظلام صحراء الفحاحيل جنوب الكويت، وقال أنه لم يتعرض للضرب، لكنهم تركوا المرأة، وفي السجن تم تركه ثلاثة أيام وبعد ذلك تم ترحيله وإنهاء عقده وتسليمه مستحقاته، وقال لي: قل لها إنه ينتظرك في مصر - ابن المجانين- وسألت نفسي هل أحبها؟ أحسستُ برغبة في سؤال "صبيحة" عن ذلك، ولكني لم أرها منذ زمن ليس بالقصير، لأننا كنا قد اتفقنا أنا وصبيحة على أن تسير حياتنا كما هي دون تغيير في الكويت لنترك لقاءاتنا للصدف.

ليتني تذكرت مليون جنيه، وجدتها أمامي في كافتيريا فندق الميرديان، حيث كنت أذهب أنا و"رحيم" بناءً على دعوة من "علي" مدرس

الموسيقى، "علي" الذي ارتضى أن يعيش بنصف موهبة ونصف رأس، يعزف بعض الألحان القديمة على العود، وكنا ننتشي. أشارت بيدها ودعتني إلى طاولتها، لمحها "رحيم" سألني إن كنت أعرفها، هززت رأسي، فقال لي وهو يبتسم "اذهب، الفرص هنا نادرة" ترددتُ فدفعني من على المقعد في جنبي فاتجهت إليها وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، قالتْ لي: "لماذا لم تتصل بي؟" قلت لها: "الهاتف معطل منذ عدة أيام" قالت: "الهواتف أكثر شيء بالكويت، آه أنت خائف" قلت لها: تاني؟ قالت دعنا من ذلك، ما رأيك أن تستأذن من صديقك وتأتي معي؟" سألتها: "إلى أين" قالت وهي تبتسم: "عدنا للخوف" ترددتُ وكان "رحيم" معنيا، حين تطلعتُ إليه على الطاولة التي كنا نجلس إليها وجدته قد اختفى، وعلى صدر الطاولة كانت هناك بضعة دنانير ملقاة في إهمال، "عادته دائمًا" قلتُ لها: "هيا".

وحين دخلنا المصعد قالتْ: "مولاي الملك أنت ضيفي الليلة"، وقالت "سوسن": ما رأيك أن تكون شهريار وأنا الوزير؟ ماذا تريد جلالتكم اليوم؟ ابتسمتُ وقلت لها: "أريد قبلة" قالت: "الملوك لا يسألون عن القُبل؛ فهم أرفع من ذلك".

هل خسرتها؟ يبدو أني خسرت أشياء كثيرة.

فتحتْ كاسيت السيارة فانسابت موسيقى خفيفة، وأشعلتْ سيجارة وناولتني واحدة ولم ننطق بكلمة طول الطريق، وأمام عمارة ضخمة في طريق "الفنطاس" نزلنا من السيارة، تطلع لنا الحارس الإيراني وسار كأنه لم يرنا، فتحتْ الباب ودخلنا، الشقة تمتلئ بتحف من كل مكان في العالم، الراقصة الهندية ذات الرداء الحريري الأحمر وأصابعها الرفيعة المعلقة في الهواء، وابتسامتها الحزينة وأمامها بعض الفيلة الخشبية المتدرجة الأحجام وقناع أفريقي ودمية روسية ذات رداء واسع دائري وقبعة أميريكية من القش، وبارافان أسود صيني، ومعلقات إضاءة كورية حمراء، ومبخرة عربية على شكل صدفة لؤلؤة في منتصف الصالة، وأضواء باهتة خفيفة موزعة بنظام دقيق صارم.

قالت: "خُذ راحتك سأخذ حمامًا سريعًا". إذن فلقد قررت صبيحة بنت الأصول العربية العريقة، بائعة النفط والذهب والصحراء والشمس أن تصبح جارية لـ"سيد العبد" المصري الذي كان جنديًا لا يساوي شيئًا ملقى به في صحراء السلوم منذ شهور والذي تعرض للإهانة تلو الإهانة ولم يدر إن كان هذا سجنًا أم شيئًا آخر، هل أقبلت الدنيا؟

ارتفع ضغطي قليلاً، أتتْ بعد لحظات، كانت ترتدي الغلالة الرقيقة، وكان شعرها مبلولاً، وشممت رائحة الياسمين تتضوع منها، وأتتْ بمبخرة قمتها تشبه قوقعة اللؤلؤة ووضعتها على الأرض ووقفت فوقها فتسرب دخان البخور من تحتها والتصق بالماء الذي يعشش فوق جسدها الجميل، والتصق الاثنان بجلدها، ثم تركتني للحظات وعادت وفي يدها زجاجة "دهن العود" وقامت بدهان رقبتها ثم قالت لي: "يلـلا يبه داری ويهك"، فداريت وجهي وأعطيتها ظهري وكانت الروائح المنبعثة قد أطارت خلايا دماغي كلها، ثم قالت لي "خلاص" عدت أنظر إليها وحين حاولت إمساكها انفلتت مني، واتجهت نحو جهاز التسجيل وأدارت أسطوانة "إنت عمري" لـ"أم كلثوم". قلت لها لقد شككت بأنك تعرفين اللغة العربية، فهل تعرفين "أم كلثوم"؟ قالت وهي تضحك: "أم كلثوم" أغانيها خُلقت للرقص. وحين انتهتْ كنت أنا قد أصبحتُ عاشقًا لـ"أم كلثوم" و"صبيحة" والعطر والياسمين ودهن العود والبخور الشرقي. وكانت الحجرة قد امتلأت بالدخان تمامًا وكان ضغطي قد علا شيئًا ما، ووجدتها فجأة بجانبي، حين رن جرس التليفون قالتْ "خليه يدُج" قلتُ: أجيبي عليه أولاً قد يكون أمرًا هامًا. نهضتْ في تثاقل، وهي تلعن كل

شيء، وحين أصبحت وحدي في الصالة لا أدري لماذا تجمعتْ فوق رأسي كل ملائكة السماء وحشرتْ في دماغي فجأة أنها "سوسن"، صبيحة هي سوسن، سوسن بشحمها ولحمها، وحين عادتْ جلستْ مثلما كانت، بدأت أدقق فيها، ها هي تتشكل أمامي، عيونها وشعرها ورقبتها وصدرها وقدماها الصغيرتان، سوسن تعبر كل مدن العالم وتأتي الآن، لماذا ؟ أنفاسها تتردد في عنف، تجذبني نحوها، بدأت أقاوم شيئًا ما داخلي، أقاوم سوسن، أدفعها عني خوفًا عليها، لا يمكن للملائكة أن تموت وهي تمارس الجنس الجنون، أفق يا مجنون، "سوسن" و"صبيحة" شخص واحد، وإلا لماذا تابعتك منذ مجيئك، ما بينك وبينها ليس لحظة، وإنما هو عمر، عمر كامل، ها هي أخيرًا بين أحضانك، زوجتك على سنة الله ورسوله، ولكن سوسن أبدًا لم تكن بين أحضاني شبه عارية، إذن فمن هذه، هذا هو النصف الآخر من سوسن الذي أردت استكشافه يومًا ما ولم تفلح، أفق يا كولمبس يا ابن العبد، أنت تزوجت صورة من سوسن ولم تتزوج سوسن، كيف مارست الجنس معها ببساطة في القاهرة، ولماذا ترفضها الآن، لم تتزوج سوسن، بل تزوجت صبيحة، كيف صور لك خيالك في القاهرة أنك تزوجت سوسن؟ أفق، أفق سوسن ليست صبيحة، صبيحة ليست سوسن، لم تبحث أبدًا عن

جسد لـ"سوسن"، بل عن روحها، فما الذي قدمته لـك صـبيحة، تهويمات جنسية، مالك أنت والجسد؟ أين سوسن؟ أنـت في حاجـة إلى سوسن، ولست في حاجة إلى صبيحة.

حين تذكرتُ ذلك طار البخور والسحر الذي كـان يغطـي المكـان، وارتفع ضغطي وشعرتُ بأن هناك ما ينسكب في لباسـي الـداخلي فنهضت في فزع، هل كنت مجنونًا، طالما تمنيـت هـذه اللحظـة منـذ معرفتي بها وكنتُ متأكدًا أنها ستحدث ولكني لم أعرف متى يمكـن أن تحدث، حدثت مرتان من قبل بالقـاهرة بعـد زواجنـا وهـا هـي مطروحة أمامي يكفي أن أنزع الغلالـة، كانـت قـد شـربتْ أيضًـا وكان صدرها نافرًا وشفتها ترسل لي سياطًا من العذاب لا تنقطع، ولكني كنت قد اتخـذت قـراري فتحـتُ البـاب، وخرجـتُ سـريعًا، هبطـت ركضًـا علـى السـلالم، لاحقـني صـوتها، لم انتظـر المصـعد وسرت في الشارع، اختفيتُ في الصحراء القريبـة، يحـوطني سـراب سوسن وضلالي الدائم، منذ رحيلها عـني، هـل انقطعـت علاقـتي بـ"صبيحة"؟ سألت نفسي ولكني كنت واهمًا، كانت كـرة الجليـد تتحرك في هدوء وثبات قاطعة الطريق المفتوح نحوي في توجيه دقيق قنبلة وانفجرت فيك يا "سيد" يا بن العبد يا مصري.



(١١)

بقايا من "سوسن" وأشواقي

أما آن لنا أن نستريح من تلك الهجرات الدائمة؟

قال "أبو حمد" إنه مضطر للسفر للهند، ولما سألته: ولماذا أنت مضطر يا "أبو حمد"؟ أجاب بأن زوجته لابد لها من نقل "كلية" وأنهم في الهند يتبرعون بكلياتهم مقابل عشرين ألف دولار للكلية، كما أن هناك فرصة كبيرة للعثور على "كلية" بشكل سريع بسبب زيادة عدد السكان وبسبب الفقر، ولأنه يريد زيارة الهند فهو يعتبر الهند جزءًا من تراثه ككويتي.

كان العام الدراسي يقترب من نهايته، وسافر "أبو حمد" وبقيت وحدي، وكان المدرسون مشغولين بالإعداد للامتحانات والسفر ويحلمون بالنساء وبالقاهرة ودمشق وبيروت وتونس، عندما ألتقي بـ"محمود" وعماله أجد الأفلام الجنسية تفسح طريقها إليهم بسهولة، تأتي مهربة عن طريق المطار من العراق أو السعودية أو

حتى إيران، الجميع يهرب إلى النوم الكثير والتسكع في ساعات المساء في ميادين حولي والسالمية والكويت والفحاحيل، البعض يغرق في العمل يكاد لا ينام حتى يستيقظ مرة أخرى ليعمل من جديد، يعمل بعضهم دوامين وثلاثة في اليوم الواحد، يعللون ذلك بأنهم في معسكر للعمل، ويقول آخرون بأنها فترة صغيرة في الكويت مهما طالت يحاولون فيها جمع ما يستطيعونه، ولم يجد البعض الآخر تعليلاً لذلك. طائر القدر يحلق فوق الجميع، البعض يعيش على أمل الموت هنا، والبعض يرى أنه ميت لا محالة في أي مكان، والآخرون تركوا مصائرهم للظروف.

لم أقرر بعد هل سأسافر أم سأظل في الكويت مع "رحيم" و"فجر"، حذرني البعض من أن الكويت في الصيف لا تطاق، تكون قطعة من جهنم، وجهنم لا يسكنها سوى الشياطين فكيف نكون نحن بشرًا، ولأنني كنت قد تعودت على الحرارة والرطوبة فقد نويت عدم السفر، وقال "رحيم" بأن عمته تسافر وزوجها إلى مصر في الصيف وتبقى الفيلا خالية تمامًا، وشوارع الكويت خالية من البشر والزحام وبائعي التذكارات الرخيصة فلنمرح مع الشياطين الباقية.

كان المدرسون يملأون شوارع السالمية وشوارع الكويت يشتري أغلبهم أقمشة وساعات رخيصة وأجهزة تسجيل وألبسة نسوان وخلاطات وسوتيانات، وكان بعضهم يقيس السوتيانات على صدره، كنا نبتسم، والبعض الآخر يشتري تليفزيونات ملونة وصابون "كاميه ولوكس" وشاي وعصائر وجمبري ولحم وهيل وجوزة الطيب، وكان البعض يشتري أحذية ومعاطف مصنعة وأقمشة جميعها لها رائحة البترول ذات نسيج خشن، عطور نسائية بنصف دينار للزجاجة، وكانوا يتطلعون على فاترينات المحلات كأنهم يشاهدون ذلك للمرة الأولى، يمشون في جماعات، وكنت ألمح بينهم أحيانًا رجال الشرطة شبانًا صغار السن، وكانت الحوادث نادرة، وكان باعة الآيس كريم منتشرين كالذباب، ولم أر نساء في ذلك الوقت.

* * *

كلمتُ أبي في التليفون، كان سعيدًا بما أُرسله، وكنتُ سعيدًا بأني أسمع صوته، وكلمتني أختي الصغيرة وسألتها عن صحة أبي فقالت "بُمب"، واكتفيت، وقالتْ بأن الشقة التي انتقلوا إليها جميلة،

وبأنها سعيدة، وقالتْ إن امتحانات المدرسة على وشك الانتهاء، وأنها تجلس مع جدتنا لأمي الآن، وأنها أجرت عملية لإزالة "اللوز" وأنها أصبحت سمينة بعض الشيء، ولم تنس أن تقل لي أن أرسل إليها بأدوات الماكياج والملابس الداخلية، ولما قلتُ لها بأنك مازلت صغيرة، قالت بأنها في الثانوية العامة، فصمتُ.

حين انتهيت خرجت أنا و"سامح الفوال" و"أبو زيد" إلى الطريق وحين كنا نعبر في صخب وصياح سمعنا صرخة أشبه بصرخة طفل وحين تلفتنا لمحنا قطًا صغيرًا داسته سيارة من تلك السيارات السريعة التي لا تُرى وكان يتلوى، وتناهَى إلى أسماعنا ذلك السباب "يا أولاد الجحبة" ولأننا "أولاد جحبة" حمل أبو زيد القط ولكن سامح الفوال قال اتركوه لي، وفي المنزل داوى جراحه وكان ينام بجانبه. وحدثني وهو نائم عن المدرس "حسنين" الذي يسكن الطابق العلوي والذي يقوم بترقيم صندوق البيض الذي يشتريه من واحد إلى أربعة وعشرين ويبدأ في أكل البيض من رقم أربعة وعشرين حتى لا يختلط ببيض الآخرين. وعن المدرس الأسواني الذي له عشرة إخوة من البنات والذي أتى في بداية العام بنصف جوال من الملوخية يأكل منه كل يوم، وكنتُ أعجب من أن سامح يذكر هؤلاء، سامح بالذات.

حدثته عن مدرسين ينفقون كل ما يحصلون عليه في الملابس والطعام والنساء إن أمكن، فقال مجانين لابد أنهم مثلنا من القاهرة، أبناء المدن مختلفين ونسيت أن أحدثه عن "سامح الفوال" الذي يصر ألا يصرف أكثر من ثلاثين دينارًا في الشهر الواحد، المشغول دائمًا بأسعار الفائدة، وشركات توظيف الأموال وأسعار التحويل.

سمعنا دقًا على الباب، كان المدرس "عبد الخالق" مدرس اللغة الإنجليزية الذي يسكن الدور العلوي من العمارة وكان يسأل عن أسماء بعض المستحضرات الطبية التي تستعمل لتسكين ألم الأسنان وكان يتحدث إلى "سامح" وحده وحين خرج كان "سامح الفوال" يبتسم، وقال لي إن "عبد الخالق" اشترى دواء لعلاج الأسنان ليرش به قضيبه قبل أن يجامع زوجته ولا يعرف كيف يستخدمه، قلت له وأنت تعرف، قال بأنه خبير في ذلك، "سامح الفوال" خبير النساء والأدوية الطبية هذا أفضل لقب لك، ضحك ثم صمت طويلاً وأخذ يدلك قفا القط الذي مد برأسه في الهواء ونام.

في الليل، مع أصوات المكيفات، والروح الطالعة فتحت دفتر مذكرات "سوسن" ذكراها الوحيدة التي تركتها لي، ترتعش يداي دائمًا حين اقترب منها، وينقبض قلبي ويئن، وتهيم روحي في

ملكوت ذاتي، أصيغ السمع إلى همسها حين كان يداعب أذني ويحننها فكانت ترتخي لتسمع وترى، أقلب الصفحات... ("حبيبي" مريض اليوم، لم يأت الكلية، سألت عنه لم يجبني أحد، أكاد أجن، هل أصبحت مجنونة به، لقد احتلني مع سبق الإصرار والترصد، قصرت شعري من أجله، قال بأنه يحب فيَّ قُصة "شادية" فصرت أغني له حين نجلس سويًا، قال بأنه يحب صوتي، لم أره أبدًا يلمس يدي، هل يخجل، لا أدري. أحيانًا يقول كلامًا لا يخجل منه، لكنه لم يلمس يدي، أين ذهب لقد تركته بالأمس سليمًا).

موسيقى "عمر خيرت" تبعث في الغرفة مزيدًا من الأشواق، صوت المكيف أصبح هادئًا وأنا مازلت أتقلب في الفراش.

أرسلت إلى "صلاح" أن يبحث عنها في كل مكان، هل يمكن أن تكون في الكويت مؤكد أنها لم تذهب إلى السعودية، إذن فهي في واحلة من البلدان الخمس الأخرى وأنا لا أعرف أحدًا في البلدان الأخرى، أريد أن أراها ولو لمرة واحدة، ولكني كنت أعلم أني أكذب على نفسي، هل أندم الآن على أني لم أرد على خطاباتها وأنا في الجيش، هل أذكر آخر لقاء لي معها كيف كان، كان بعد دخولي الجيش بأيام وقبل ترحيلي إلى سيدي براني، ماذا قلت وماذا

قالت وماذا فعلنا، هل فقدت الذاكرة؟ إذا فقـدت الـذاكرة وأنـا في الخامسة والعشرين فماذا يبقى وماذا أنتظر، فلأحترق أو أموت فـلا شيء يهم، هل مات قلبي ودفنته معها في هذا اليوم، هل يمكـن لـي أن أحب امرأة أخرى؟. كنت قد أمسكت بالسكين وألقيـت بقلـبي بعد أن قطعته على قارعة الطريق في ميدان الدقي حين قابلتها آخر مرة، عيناها الواسعتان تمتلئان بدموع، وكنت أنـا أركـض عائـدًا في الطريق الآخر.

ووجدت نفسي أبكي فجأة بعد انقطاع التيار الكهربائي، فهربـت من الغرفة إلى الشرفة وكـان "سـامح" يجلـس هنـا ممسكًا بـالقط الصغير بين أصابعه يقلبه في هـدوء. وأخـيرًا نطـق بكلمـة واحـدة مقتضبة: "مات". لم أدر إن كان بكـى أم لا، ولكـن ضـعفًا شـديدًا أدركه أخيرًا، البشر هم البشر حاملو كل متناقضات العالم.
يا مملكة الغاب انتعشـي فهـا هـو دم جديـد يـراق، فلتجتمـع كـل الذئاب ولتـنقض علـى تلـك الجثـث مـرة واحـدة حتـى يسـتريح الجميع.

* * *

دق جرس التليفون في المكتبة، على الناحية الأخرى كانت هي، "صبيحة"، تتكلم كأن شيئًا لم يحدث، قالت: "أنتظرك في أي مكان عام تحدده" قلت لها وأنا أحاول لملمة الأشياء التي انفجرت وتبعثرت داخلي فجأة، وشعرت بأن أوان القتال قد حان معها، قلت: "ولماذا مكان عام؟" قالت: "أنت جبان". صمتُ ولم أتكلم، قالت: "ما رأيك في الميريديان حيث تقابلنا آخر مرة؟" أجبتها وأنا أداري بعض من حيرتي الطاغية: "في الثامنة مساء".

وذهبت في الموعد المحدد، وحين دلفتُ من باب الممر نحو الكافيتريا وجدتها أمامي مباشرة جالسة تبتسم في هدوء وتحدٍ صامت، تقدمتُ نحوها بخطوات بطيئة، لم تتغير، هي كما هي ترتدي فستانًا سماويًا، شعرها الأسود ملموم خلف رأسها وشفتاها ازدادتا لمعانًا، ابتسمتُ فقط، هذا كل ما فعلته وفجأة وجدت من يمسكني من ذراعاي من الخلف، كان ضابطًا وشرطيين وقال الضابط "تغازل، ها؟" تطلعتُ إليها وسألتها في أسى "لماذا؟" ابتسمتْ في شماتة ظاهرة ولمعتْ تلك النظرة المتحدية في عينيها، ونهضتْ حاملة حقيبتها واختفتْ بين المقاعد المتناثرة والعيون التي تتمطى في كسل. ونزلتُ معهم وفي المخفر طلبتُ من الضابط أن أتحدث في الهاتف، قال في فظاظة: ليس الآن.

وبعد عدة ساعات من الحبس في غرفة شبه مظلمة ليس فيها أحد آخر سوى هذا الهندي الذي لا يجيد العربية ولا الإنجليزية وهو يصيح: "بابا مال أنا يجول عني حرامي، وأنا ما يعرف يسرق، أنا مسلم، المسلم مو حرامي، أنا ما يعرف يسرق". ووجه حديثه إليَّ: "بابا، جول لهم أنا ما يعرف يسرق، يجولون إني سرقت دهب عمتي، بابا أنا ما يفتهم، أنا ما يعرف يعني ايش دهب، بابا أنا ما شوفت دهب، بابا أنا ما يفتهم". وسكت، كان يردد العبارة كآلة ولم أستطع إيقافه، ولم يكن يبكي؛ كان واقفًا يتطلع إلى النافذة المضاءة "بابا مال أنا يجول عني حرامي". وكنتُ غارقًا في أفكاري لا يمكن أن أعترف بأنها زوجتي، فقد اتفقنا على ذلك، لكنها أخلت بالاتفاق الآن، فما الذي يمنعك من القول بزواجكما، ترددت كثيرًا لكني حسمت الأمر في النهاية، لا يجب أن يعلم أحد بقصة هذا الزواج، فما بني على باطل فهو باطل، والباطل قبض الريح، و"صبيحة" لم تكن سوى هذه الريح.

ناداني العريف في الصباح وأخبرني بأن الضابط أبلغه أنني أريد الحديث في الهاتف... اتصلتُ بـ"رحيم" في المنزل، ردتْ عليَّ "فجر" قلت لها: "أرسلي رحيم على المخفر".

أتى ضابط الأمس وحين وقفتْ أمامه قال لي: تغازل، هاه، والله ملعون، إيش تشتغل؟

قلت له: راعي مكتبة.

قال: يعني أستاذ، إيش معاك ثانوية ولا متوسطة؟

"ليسانس يا مولانا"

ابتسم وهو يقول: يعني خريج جامعة، عيب والله عليك يا شيخ، تغازل، زين زين.

ولم أدر ماذا يعني بعبارة (زين زين) الذي يرددها كل دقيقة وهو يمسحني بعينيه الضيقتين من أعلى إلى أسفل كمجرم عات في الإجرام، أحسستُ بأنَّ الصمت لا يفيد فانفجرت فيه :"اسمع يا سيدي، أولاً أنا لم أعاكس أحدًا، دي تهمة ملفقة، هذا إذا كانتْ هناك تهمة من الأساس".

قال: "وايش تجول في البنت اللي متهماك؟"

قلت: "ما اعرفش أسألوها" ثم أكملت "وإذا كان لابد من التفتيش يا ريت على الأقل نخلص".

نظر لي دون أن يظهر عليه أنه صدق حرفًا واحدًا مما أقول، ونادى على العريف الذي أودعني الحبس مرة أخرى.

قررت الصمت ولم أتكلم، بعد علة ساعات أتى "رحيم" وزوج عمته الكويتي ومحام، وخرجتُ من المخفر بعد دقائق. كانت "صبيحة" قد تنازلتْ عن المحضر وابتسم الضابط وهو يقول "في أمان الله". قلت له: "أي أمان بعد أن نشَّفت دمي". ضحك وقال: "ابعد عن الحريم، المرة هنيه توديك ورا الشمس". قال رحيم "الموضوع انتهى"، وكان صوت الهندي في الحبس يتردد "بابنا مال أنا يجول أني حرامي"، وكان يبكي.

أخيرًا خرجنا، اصطدمت بالشمس القاتلة، لم أذهب لمنزلي قال "رحيم" إنه لابد من مكوثي معه علة أيام، كنتُ أحدثه عن الحبس والهندي والجوع ورجال الشرطة صغار السن حين شعرت بدوار مفاجئ. وكان عقلي على وشك أن ينفجر، وحين فتحتُ عيني قال الطبيب بأنه ارتفاع حاد في الضغط ولابد من الراحة.

وهكذا عشتُ أربعة أيام بين "حمام" و "فجر" و-"جاكي" ومدام "سعاد" عمة "رحيم" والسيد "أحمد الجمعة" زوج مدام "سعاد" الرجل صاحب الابتسامة الكبيرة والقلب الأكبر. قالت لي "فجر" وهي تقدم لي طعام الإفطار: "هناك امرأة في الخارج تريدك".

وسألت نفسي من يا ترى، وحين دخلت كانت صبيحة بشحمها ولحمها، سكتُ وقالتْ: "سألتْ عنك في المدرسة فقالوا إنك في أجازة لأنك مريض، عرفت عنوانك من المخفر". سألتها "لماذا فعلت ذلك؟" قالت: "ردًا على ما فعلته أنت"، وابتسمتْ.

كنتُ أريد أن أقتلها ولكن شيئًا ما داخلي كان يمنعني من ذلك، اقتربتْ من السرير وجلستْ على حافته، وكانتْ "فجر" على الباب وحين همتْ بالانصراف قلتُ لها استني يا "فجر"، ولكن الخبيثة كانت قد فرتْ، لاحظتُ في عين "صبيحة" هذا الحنان النسائي الغريب حين أشحتُ برأسي عنها، تناولتْ رأسي بين يديها وقبلتها، هل ارتفع ضغطي أم انخفض؟ لا أدري، كنت غارقًا في قبلتها.

"ماذا تفعل يا بن العبد، ما معنى هذا العبث الدرامي"

وحين رفعتْ رأسها قالتْ بأنها لم تدر أنها تحبني إلا ليلة أمس، ولكني لاحظتُ فجأة أنه ليس هناك فرق بين "صبيحة" و"سُنسُن". أخبرتها بأني سوف أرسل لها ورقة الطلاق، تطلعتْ في وجهي مليًا لكني كنتُ قد انتهيتُ من ذلك وأشحتُ بوجهي مرة أخرى. لم تقل شيئًا ونهضتْ فجأة وخرجت، وأتتْ "فجر" مسرعة بعد خروجها ومسحتْ لي شفتي بطرف كم جلبابها

المصنوع من "الكستور" وقالت وهي تبتسم: "كانت عايزة منك إيه؟" قلت لها: "ولا حاجة". قالت في غيظ: "نسوان عايزة الحرق". وخرجتْ لتحضر لي كوبًا من الماء، وكنتُ غارقًا في مقارنات غير مجدية، وسمعت صوت سيارة في الخارج تقف، كان "أبو زيد" و"أسامة العجرودي" و"سامح الفوال" و"عبد الخالق" و"كمال القلقيلي"، جلسوا جميعًا حولي وأحسست لأول مرة منذ مجيئي الكويت براحة غريبة، ولكن "عبد العظيم" مشرف السكن كان له رأي آخر، أما كرة الجليد فقد كانت قد توقفت تمامًا.



(١٢)

عودة أخرى إليها

قال الشيخ في آخر أيامه: مَنْ لك؟ صمت، فكرر السؤال، صمت، ابتسم واختفى وتركني هناك في آخر العالم اللامعلوم.

كنتُ قد تشاجرت معه منذ أيام بعد أن صحت في وجهه بأنني قلت له للمرة العشرين أن يقوم بإصلاح مكيف الصالة، فأغلق الباب في وجهي، فضربتُ الباب بقدمي أكثر من مرة، وصرختُ فيه أن يفتح إذا كان رجلاً، هل كنت مغتاظًا منه؟ لا أدري.

حين عدت للمدرسة في اليوم التالي، ناداني الناظر وقال بأنني مطلوب للتحقيق في الوزارة، ولما سألته عن السبب لم يقل شيئًا، ولما كان أغلب النهار قد مضى فقد أجلتُ ذهابي للوزارة إلى اليوم التالي، ولكني في الخامسة فجرًا سمعتُ طرقًا شديدًا على الباب وحين فتحت كان هناك رجل له رأس صقر وجسد ثعلب يرتدي عقالاً أكبر من كتفيه يدفعني في صدري ويدخل، وخلفه رجلان من

العرب، ولم أدر هل هما فلسطينيان؟ أم مصريان؟ أم سوريان؟ أم ماذا؟ قال بأننا من "مراقبة الإسكان" وقد أبلَغَنَا الأستاذ "عبد العظيم" بأنك تعرض أفلامًا خليعة في شقتك، وأنك تلعب القمار وتأتي بكثير من النساء إليها، وقد حضرنا للتفتيش. فعلها "عبد العظيم". قلتُ له "افعل ما تريد"، أشعلت سيجارة وكان "سامح" بجانبي، وجلسنا فوق الكراسي رافعين أقدامنا من على الأرض، وحين انتهوا من التفتيش سألته إن كان عثر على شيء؟ لكنه لم يرد، رفع نظارته فوق أنفه وخرج.

* * *

سألني المحقق عن الاتهامات فنفيتها، وسألني عن علاقتي بـ"عبد العظيم" فقلت له لا أعلم إن كانت جيدة أم سيئة، فقال لي لماذا اتهمك لابد أن هناك شيئًا ما، فأخبرته بما حدث أول أمس، وخرجتُ بعد أن أصبح ملفي في حجم الكيلو، وعلمتُ بأنهم استدعوا خمسة مدرسين من السكن سألوهم عني.

هنأني الناظر في المدرسة بالبراعة، وكنتُ قد توعدت "عبد العظيم" بكسر رأسه حين أعود للسكن، لكني وجدته واقفًا بباب

العمارة يبكي، نسيتُ كل شيء، قال بأن مدير الإدارة استدعاه وقال له قدم استقالتك، ولا يرضيك يا سيد أن يفعل مدير الإدارة ذلك، مدير إدارتك هو مدير إدارتي وطلب مني أن أتحدث مع المدير، وعدته خيرًا في الغد، ونسيتُ حتى أن أعاتبه على ما فعل وأنا الذي كنت أريد تكسير دماغه، وقال "سامح الفوال" هذا رجل وسخ، لا يستحق شيئًا. ولكني ذهبت للمدير في اليوم التالي وانتهى كل شيء، ولكن "عبد العظيم" كان قد أدمن الشجار والجنون، فألقاه أحدهم من شرفة الطابق الأول لعمارة "سكن العزاب" بعد خناقة سريعة بسبب مراودته له عن نفسه فسقط وقد تكسرت عظامه، وتم ترحيله بعدها واعترف الرجل بأنه كان يراوده عن نفسه، ضحكنا جميعًا مما يجري، ثم بلعنا الليل وصوت المكيفات وعدنا نغط في نوم عميق.

في القاهرة كان الصوت الوحيد الذي أسمعه حين أدب في الليل هو صوت الكلاب وبعض السيارات التي تسير على غير هدى، وكنت ألمح أحيانًا خلف الزجاج بعض النساء، ولكني هنا أتوحد مع هدير المكيفات كأنها سواقٍ للأجساد، فإذا انقطعت الكهرباء تحللت الأجساد وفطست الأرواح في حر كثيف يقتل كل شيء

فتمتد الأيدي في الهواء تبحث عن نسمة هاربة، ولكن النسمات في صيف الكويت تموت جميعها ولا تبقى سوى تيارات ساخنة تحرق الوجوه والأجساد.

قال "رحيم" ونحن جالسان فوق الحشائش المحترقة بعد ما تسخن فتروي الأرض من جديد: حين أتيتُ الكويت للمرة الأولى، كنت هاربًا من حي الزمالك، وهناك بالقرب من النيل كنت أقف انتظرها مع كل صباح، كانت تسير أمامي، أتطلع إلى عينيها أظنها تمتلئ بالورود، كان قلبي يرقص ويركض بطول شط النيل، وكانت تعلم أني أنتظرها كل صباح لكننا لم نتكلم أبدًا. ستة شهور من النظرات المتبادلة، كنت أظنها فنانة، تحترف الرسم بالألوان على وجه التحديد، كانت ألوان فساتينها مشرقة. وحين ذهبت للحرب لم أنسها، وبعد نهاية الحرب لم أعثر عليها أبدًا، هل كنت أحبها؟ هل كانت تحبني؟ أسئلة لم أجد لها أي إجابات، أسئلة وهمية لا معنى لها الآن لكني أعتقد أنه الحب الوحيد في حياتي، حب لم نتكلم فيه كلمة واحدة أو حرف واحد، لست حزينًا الآن، في كل صباح كنت أرى فيها جديدًا، وبعد أن تمضي أسير إلى عملي على الأقدام، كانت دفعة الروح لا تنثني، أظل أسير حتى أصل وهناك

أعيش في ذكراها. وحين أتيت للكويت بعد الحرب عرفت "هيام"... كانت مخلوقًا عجيبًا، شقية، تمتلئ بالحياة، نسيت معها سنوات الحب، ولكنها ماتت في حادث سيارة في سلة شتوية وهي تعبر الطريق لتأتي نحوي على شاطئ بالإسكندرية، ولم يتبق منها عندي سوى بعض الشرائط والصور. وذهبتْ في إجازة وكنا متفقين على الزواج حين عودتها، ولكنها لم تعد، هل تسألني عن الحزن، لا لم أحزن لكني تعودت على الكي بالنار، احترق قلبي في "الرسامة"، وكفنته في الجيش، ودفنته مع "هيام"، كانت عيونها خضراء وبشرتها سمراء، هل تصدق ذلك ومع ذلك ذهبت، مازلت أحتفظ بخطاباتها وشرائطها وصورها، حين أُغلق الباب على نفسي أخرجهم وأحلق في الماضي بغضب وفتور، اللعنة على كل شيء.. "فجر" اعملي لنا شايًا، ثم راح في صمت عميق.

أردت أن أحدثه عن "سوسن" ولكني أمسكت، كان صدره مفتوحًا كساقية، وقلبه غارقًا في شاش أبيض، وعيونه مسلطة على اللاشيء نفض رأسه فجأة وأغلق قلبه والساقية، وزغدني في كتفي وقال: "أنا لن أعود إلى مصر، فمتى ستعود أنت؟" قلت له: "أعتقد أنني سأعود في نهاية هذا العام؛ فقد تركتُ ورائي حنينًا غريبًا" قال في برود: "حنين؟ لا تدع مثل هذه الأحاسيس الفارغة تجرفك". ولكني

كنت أشعر بأنه يشتعل بهذه الأحاسيس، ولكنه اكتوى واحترق فلم يعد يؤثر فيه شيء.

وضعتْ "فجر" الشاي، وقفتْ وقالتْ "سنسافر في الصباح، هل تحتاج أي شيء"، تطلع إليها وقال "اتركوني وحدي وكفى".

ترقرقتْ في عينيها أشياء لامعة وقالت: "الثلاجة ممتلئة بالطعام، ملابسك كلها مكوية، الملابس الداخلية نظيفة كلها". اقترب من أذني وقال: "هل تعلم أن "جاكي" تكوي لي ملابسي الداخلية" سألته في قلق: "هذه المرة الأولى في حياتي التي أعرف فيها أن الملابس الداخلية يتم كيها". قال وهو يضحك: "كنت عبيطًا مثلك، وحين فعلتْ ذلك أول مرة أدركتُ أن جميع نساء العرب يستغفلننا". وقال: "سأسر لك بشيء آخر، جاكي يمكن أن تدلك لك ظهرك كأعظم مدلك في العالم". ثم تنهد وقال:"امرأة حقيقية" أدركتُ حينها أن علاقته بـ"جاكي" متشعبة، ولكني لم أفهم علاقته بـ"فجر"، وقال لا تفكر كثيرًا فيما أقوله لك، سيأتي اليوم الذي تعرف فيه كل شيء. فوق باخرة "صلاح الدين" بالجيزة بعدها بسنوات حكى لي كل شيء.

* * *

سافر "علام" اليوم إلى بغداد، ولم أر للسعادة مكانًا في وجهه، كنت أحسه يئن ولكنه لابد أن يسافر، قلت له: "لا داعي للسفر إذا كان ذلك مؤذيًا"، قال: "لا يا أستاذ، "علام" يبي يشوف زوجته وأمه".

أدركت أن الرجل قد أطاح به الشوق وهرب من أمامي، وحين تطلعتُ إليه من نافذة المكتبة رأيته يركب عربته الزرقاء "الوانيت" التي حمّلها بكثير من الصناديق والأقفاص وأدارها، كركرت واختفتْ على الطريق.

أصبحتْ المدرسة خالية تمامًا وأصبحتُ وحدي، المدرسون استلموا جوازات سفرهم التي يتم حجزها بالمدرسة، ولا تُعطى لهم إلا في الأجازة فقط – نصف السنة وآخر السنة – أو حين يحتاجونها في مهمة رسمية، ولم يتبقَّ سواي و"الريدي"، قال وهو يضحك إنه لن يخرج من باب المدرسة، سيقوم بري مزروعاتها وحراستها من الداخل هو والحارس الكويتي العجوز الذي يجلس دائمًا على الباب يتقافز حوله ابنه وبنته الصغار. استلمت الجواز وقلت لـ"لريدي" وأنا أفحصه مليًا: "سأمر عليك كل فترة علك تحتاج شيئًا"، شكرني وقال: "لا تتعب نفسك يا أستاذ" ولكني كنت أمرُّ عليه كل أسبوع، وحين حاولتُ أن أدعوه للخروج من المدرسة

رفض رفضًا قاطعًا وقال بأنه لا يشعر بالأمان في أي مكان آخر، وكنت أجد الحارس أحيانًا ولا أجده في أحيان أخرى.

في الأسبوع الأول من شهر أغسطس وكانتْ الكويت تحترق بفعل الشمس وموجات الرطوبة وريح الطوز، لا أرى أبعد من أقدامي حين دخلتُ المدرسة فلم أجد "الريلي"، وحين درت حول المبنى الإداري للناظر حيث تقع المزروعات في خلف المبنى وجدتها صفراء ناشفة، بدأت أنزعج، واصطدمت قدمي به في هذا الجو المقيت فوجدته هناك راقدًا على ظهره، وأدركت أنه ميت، كان السكين في قلبه بارزًا، بعد أيام تم ترحيل جثته إلى مصر مع بعض زملائه، وحين نظرتُ إليهم شككت بأنهم هم قاتلوه لكني طويت سره داخلي وابتعدت.

* * *

على الخليج يتناثر الحديث بيني وبين "رحيم"، كان "أبو زيد" و"أسامة" و"عبد الخالق" و"علام" و"أبو حمد" والجميع قد سافروا، وتركونا أنا و"رحيم" وحدنا في الكويت، حتى "صبيحة" اختفتْ، ولا أعلم إن كانت قد ذهبتْ إلى لندن أم القاهرة.

* * *

في البنك حين كنتُ أقف لصرف بعض من مرتبي، سمعت صرخته ولم أكن قد نسيتها، وكان يقف أمامي بجسمه الضخم وابتسامته العريضة، "شعبان" هذا العبيط الذي ذكر شيئًا عن النساء اللاتي يدهنَّ طرف الرجل بالأفيون، لكنه كان يضحك وهو يمسك بيده صينية الشاي، احتضنني بشدة ولا أدري كيف لم تقع منه الصينية، وفجأة تركني كما ظهر ولا أدري أين اختفى، انتظرته بعض الوقت لكن الأرض كانت قد انشقت وبلعته، كيف أتى هنا ومتى؟ لا أحد يدري، وقلت لنفسي إنه ربما كان حلمًا، وكانت المرأة التي صرفت لي مرتبي تمد يدها بالنقود وهي تبتسم، وكانت ابتسامتها تسع كل شيء، تناولته منها وشكرتها ومضيت وأنا أهيم بلحثًا عن "وانيت" أو أي مجنون يقف لي ويلقيني في أقرب مقهى.

كنتُ أشعر بوحدة لا تطاق وكانت الأيام تسير بطيئة، في الليل نخرج أنا ورحيم إلى المقهى، وعدنا نذهب لمجمع "زهرة" وكافيتريا الميريديان، ولكني لم أرَ صبيحة أبدًا بعد ذلك، وقلتُ لنفسي إنها ربما تكون ذهبت لأبيها، وكانت سوسن تزورني كل مساء، لكني كنت قد اكتويت.



(١٣)

لمّ الهلاهيل

النهاية.. كلمة لا معنى لها، فإننا نعيش نهاياتنا دائمًا،
حتى لو خدعنا أنفسنا بأننا في البدايات

إذا كان لدينا "عربة نقل" في مصر، فلديهم "تَنْكَر" في الكويت. قال "رحيم" نحتاج مائة ألف تنكر بنزين لكي نحرق تاريخنا وأفكارنا وكل ما علق بنا، الاغتسال لا يفيد، نريد تدمير الخلية. ثم سألني فجأة: هل في حياتك امرأة ؟

حكيتُ له عن "سوسن" و"سُنسُن" ولفتَ نظري لتشابه الأسماء، فقلت له "سُنسُن" أصلها "حسنية"، و"سُنسُن" امرأة للفراش أما "سوسن" فكانت مخلوقًا من نور. قال لي وهو يهز كتفيه: "لا فرق بين امرأة وأخرى كلهم نار، كل النساء للفراش"، صدقته للحظات، وقال: "إن المرأة خلقت لخدمة الرجل لا لتفعل أي شيء آخر"، قلت له: "هي شريكته في الحياة"، قال: "إن الشراكة بين

اثنين من نفس الجنس والفكر أما هؤلاء فهم أقل منا في كل شيء، لكن الشهادة لله أولاد الذين لا يمكن الاستغناء عنهم". قلت له وقد بدأت في التردد في تصديقه: "ها أنت تعود"، قال مبررًا ذلك: "حين نصل للاستغناء فلن يهمنا النساء من غيرهم"، قلت له: "الاستغناء حالة زهد كاملة من يصل إليها فهو نبي"، قال بأن الأنبياء لم يستغنوا عن النساء ورصد لي قائمة بأسمائهم، وقال بأنه لا توجد امرأة قالت بأنها نبية، هل تريد الحق أشعر أحيانًا بأن كلهن شرفاء ولا توجد واحدة بينهن مدعية"، قلتُ له: "لا يتحمل عبء رسالة إلا رجل"، قال: "قال أحد أسيادنا ذات مرة لقد وجدت في النساء واحدة ولم أجد في الرجال أحدًا"، قلت: "ربما كانت له ظروف خاصة دعته لقول ذلك وإلا كان أعطى الولايات للنساء"، قال فجأة قاطعًا مجرى الحديث: "دعنا من ذلك، ما رأيك في أن نشوي بعض السمك".

ولاحظت اهتمامه واهتمامي معه بالأكل منذ مدة ليست بالقصيرة. وسألت نفسي هل نحن مرضى مصابون بهستيريا الطعام؟ ولكنه كان قد وضع قطعة من الصفيح على موقد الغاز العريض وأشعله، ووضع فوقها السمك، وجلستُ أعد طبقًا من السلاطة حين رن جرس الهاتف. قال لي يا ترى مَنْ؟ رفعتُ السماعة، على الطرف

الآخر كانتْ "فجر"، قالت لنا بأنها نسيت أن تخبرنا عن صينية بسبوسة وضعتها في الثلاجة الصغيرة ومفتاحها أسفل "دواسة" باب المطبخ، وسمعتُ من يضحك بجانبها، قالت إنها "جاكي" صحتُ بـ"رحيم"، قال لي: "أغلق السماعة"، فأغلقتها وقلت له ما جرى، لم يبد عليه أنه سمعني، كان يهوي على السمك بعنف، وكنت أقف مثل الخائب بجانبه.

* * *

قابلتُ "أبو حمد" في السوق هذا الصباح، كنا في شبرة السمك، أنا و"رحيم" نشتري سمكًا وجمبري حين لمحته، أقبلت عليه، قال بأنه لم يحضر من الهند سوى أمس وأن زوجته قد أجرت العملية وتم نقل كلية لها، وشكى من غلو الأسعار بالهند، وبأن الرجل الذي نقل كليته لزوجته زاد في طلباته ما قيمته خمسة آلاف دولار، وأنه لم يمانع كثيرًا، وعدَّل من غترته، ودعاني للغداء معه أنا و"رحيم" ولكني شكرت له دعوته ومضيت أنا "ورحيم" نتجول في السوق، واصطدمنا بهما... فتاتان جميلتان يساومان على شراء شروة سمك ساومنا عليها نحن أيضًا واقتسمناها، ومضى كل منا في طريق، وحين وقفنا في ساحة السيارات لإخراج سيارتنا رأينا الفتاتين

تقفان أمامها في حيرة، وقفنا لهما وسألتهما إلى أين أنتما ذاهبتان؟ قالتا بأنهما ذاهبتان إلى سكن المدرسات وسألتهما هل هو "سكن للعازبات؟" ضحكتا وهزتا برأسيهما، وحين وصلنا بهما شكرتانا وخرجتا، هز "رحيم" كتفي وهو يشير إليَّ "هيا بنا بسرعة إلى المنزل سيبوظ الربيان"، يقصد "الجمبري" وأسرعنا، ولاحظتُ أنهما كانتا تقفان أمام مدخل عمارة أخرى غير عمارتهما بدعوى الخوف من أن يقل أحد عنهما شيء إذا رأونا معًا، تركناهما ومن الزجاج الخلفي للسيارة كانتا يتضاحكان، وقال "رحيم" يبدو أننا قد خُدعنا، ولم أفهم لماذا، وسرعان ما اختفيتا عن أعيننا ولم نرهما مرة أخرى.

في مقهى "سلطان" بالدور العلوي، جلسنا، كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا، ولاحظتُ هذا الفلبيني الذي كان يحاول الحديث إلينا، في البداية لم نعره اهتمامًا، ولكن وجهه الخلاسي ونظراته القلقة وابتسامته الميكانيكية جعلتنا نتبين أنه يريد الحديث إلينا، أشرنا إليه فاقترب، وكانت ابتسامته الغريبة مازالت تراوح مكانها، ودار بيننا حديث قصير، يريدنا أن نذهب لمسكنه على الخليج بجوار محطة البنزين حيث يمكننا قضاء بعض الوقت مع امرأة مقابل

عشرة دنانير، وافقنا بعد تردد قصير، وكنا نبتسم ونتذكر علقة قسم الدقي، أوقفنا السيارة، هو في الأمام وأنا "ورحيم" خلفه، الفيلا قديمة مع مزروعات كادت أن تموت في الممر، رافقتنا امرأة وصعدت بنا للدور العلوي، ووجدنا في الداخل عشر فتيات أو أكثر، لم نستطع عدّهن، الجميع يضحك وموسيقى هادئة تدور في الأجواء، ودخان السجائر يتسلل من فتحات الأنوف و يصطدم بالحوائط ويعلق بالسقف، اختار كل واحد منا واحدة، وفي الغرفة كان كل ما خلعته البنطلون حين تناهى إلينا فجأة صوت سارينة سيارة الشرطة، "هل كانت خلفنا؟" إجري، أجري وخلفي بنطلوني في يدي، وكان "رحيم" يلاحقني وهو ملتف بملاءة السرير وقفزنا من الشباك إلى الدور الأرضي من الدور الأول، كدمات بسيطة، وانطلقنا فعلاً من فوق السور ر،كضنا أنا و"رحيم" بدون سراويلنا، الظلام يُعسعس، وعاد الهدوء سريعًا، واكتشفنا أننا تركنا مفاتيح السيارة في الداخل، نظر كلٌّ منا للآخر ونحن نقف خلف تلك البناية العالية، واكتشفنا فجأة الخديعة التي تعرضنا لها، وانطلقنا في ضحك صاخب في قلب الشارع في تلك الصحراء في درب اللبانة، نسير في شوارع الكويت حوالي الثالثة فجرًا دون سراويل، وتذكرت "شعبان" والطبيب الذي كان يضرب بأصبعه

في فتحة الشرج وقلت لـ"رحيم" وأنا أمسح دموع الضحك التي كانت تنزل على وجنتيَّ: "إذا كنا قد خلعنا سراويلنا في مصر، فقد فقدناها هنا". ولا أدري إن كنا ساعتها نضحك أم نبكي أوقفنا "وانيت" ضال، كان الرجل بدويًا تبدو عليه ملامح السكر فلم يلاحظ ما نحن عليه، وهبطنا وقلنا له انتظر حتى نأتي بالنقود تسللنا من فوق السور الحديدي، بينما مضى الرجل فجأة وهو يغني شعرًا نبطيًا جميلاً، وفي الصباح أدركنا أننا كنا ضحية مؤامرة دنيئة من الولد والبنات الفلبينيات، وضحكنا في النهاية فلم يكن هناك شيء آخر لنفعله.

مرت الأيام الباقية سريعة، كان "أبو زيد" قد عاد ومعه زوجته الشابة، وكذلك "أسامة العجرودي"، أما "سامح" فكان أول العائدين، والغريب أنه كان قد وجد طريقه للدروس الخصوصية منذ اليوم الأول لعودته. و"علام" العراقي لم يكن قد عاد بعد، قال "أبو زيد" بأن الشقة التي أمامه يسكن فيها رجل صالح من رجال الطرق الصوفية في مصر، وأن زوجته تعامل زوجة "أبو زيد" كابنتها، وإن كان قد قال أن الرجلُ تعمل لديه خادمتان من الفلبين وأن له كثيرًا من المريدين، وأنه يريد أن يُعرفني عليه، فشكرته.

أما "أسامة" فقد انشغل بتسجيل أولاده في مدرسة خاصة، وبـدأت زوجته في استكشاف أسواق الكويت، وكان يحلو له أن يطلق عليها اسم "فيسبوتشي" وهكذا "فيسبوتشي" راح، "فيسبوتشي" جاء، وكان يصرخ كل يوم مما تفعله فيه، ولكنـه كـان يقـول دائمًـا وهـو يضحك "معلش محرومة.. ماذا أفعل؟".

قال لي موجه المدرسة "سنقيم معرضًـا واحتاجـك معنـا"، ولم يـزد وكان يتكلـم بعجرفة شديدة، قال لي زملائـي: "إنـه هكـذا دائمًـا، نحن نطلق عليه الإمبراطور، يبيعنا للكوايته، ابن الـذئاب". وحـين رأيته للمرة الثانية، رفضتُ الذهاب للمعرض، لم يـزد علـى كلمـة "أفنشك لو لم تأت" لا أدري لماذا صمتُ.

في المعرض وجدت الزملاء، سهرنا سـبعة أيـام بليـاليهم هنـاك في عمل مضن، وافتتح الوزير المعرض، ولم نحصل على ملـيم. عرفـت أنه صرف مكافآت لآخرين راضٍ عنهم، واجهته بذلك لم يـزد عـن قوله "أنا أثبت أقداكم في الكويت، يجب أن تظهـر تعاونـك"، ولم أفهم شيئًا.

* * *

قال "أبو زيد" بأنه منذ جاء وهو لا يرى زوجته تقريبًا، تذهب لزوجة الشيخ في شقتها وتظل لديها بالساعات، وسأل "أسامة" ماذا أفعل، قال له "اقفل عليها الباب بالمفتاح من الخارج ولا تدعها تخرج"، قال: "لا أريد إغضاب الشيخ". خرجت عن طوري ووجدت نفسي أصرخ فيه: "اذهب إلى الجحيم". نظر لي في غضب وخرج. قال: "أسامة": "لم يكن هناك داعٍ لذلك". قلت له: " يجب أن يفرض سطوته على المرأة وإلا لن يجدها". قال أسامة وهو يضحك: "مازال عريسًا جديدًا". قلت له: "سيفقدها". هز كتفيه وخرج.

لم يعد "علام" وسألت عنه بعض الفراشين فلم يفدني أحد بشيء، قلنا "ها هو قد ضاع"، كنتُ متأكدًا من أن "صدام حسين" أخذ منه نقوده وألقاه في أتون الحرب مع إيران.

حين أتى الموجه مرة ثالثة وجدته قد كبر في العمر مائة عام، جلس على مقعدي، أحضرت له شايًا وقدمتُ له سيجارة قال "لا تغضب مني، أنا أفعل ذلك لكي نستطيع أن نستمر في الكويت، أنا أقل لهم ها هم المصريون". قلت له: "ولكنهم يعتقدون أننا عبيد أو

خدم، يجب أن نفعل ما يتفق مع كرامتنا". ابتسم: "لا تقل شعارات، لو لم نفعل ذلك لما بقي منا واحد في الكويت". قلت له: "على العكس، كانوا سيحترموننا أكثر، والذي يحترمك يبقي عليك" قال: "لقد تعودوا على أن نخدمهم، ويجب أن نعودهم على ذلك، حتى نقبض، لا يجب أن يشعروا بالاستقلالية، يجب أن نربطهم بنا". كان الرجل مؤمنًا بعقيدة خاطئة وانتهى كل شيء، لا جدوى من الحديث معه، والاستمرار في ذلك سيزيد حالة الذل والخنوع التي يشعر بها البعض منا.

قال: "ليس هذا ما أريد الحديث فيه، سأقول لك شيء غريب حدث لي منذ يومين... لقد رفع ابني الطالب بكلية الطب في الإسكندرية، قضية سفه عليَّ، هل تصدق ذلك؟. لا أدري إن كنت قد ابتسمت أم رثيت لحاله، أدركت فجأة أن الجميع هنا يُرثى لهم، لقد أتينا جميعًا بالأحلام، فهل حققناها، صمت وعاد يردد: "ما الذي يريده مني، لقد ربيته وعلمته وها هو على وشك أن يتخرج طبيبًا، قال لي البعض: إن هناك امرأة وراء ذلك، هل يمكن أن يفعل ذلك بأبيه؟" لاحظت دموع عينيه، ناولته منديلاً قلت: "امسح العرق". قال: "عرق، نعم عرق، ابني يرفع قضية عليَّ ما الذي فعلته، هل هذا جزائي؟" لم أكن أدري ماذا أقول. "لديه الشقة والسيارة وأعطيته

فلوس، فلوس كثيرة، ماذا يريد، أنا متأكد أن أمه أيضًا وراء ذلك، أنا أتعب في الكويت، وأجري هنا وهناك، لا أحد يدري كيف أتعب وأسهر، لا أحد". ثم هبَّ فجأة كما جاء ومسح القطرات المترنحة على خديه، وقال "هذا سر بيني وبينك".

قال لي أحد الزملاء بعد ذلك إن ابنه فعل ذلك بسبب زوّاجه؛ أي الموجه؛ بامرأة صغيرة في السن، عدت ابتسم مرة أخرى، ثم استغرقت في ضحك طويل.

أتى "أبو زيد" بعد أيام وهو يشكو قائلاً إن زوجته تطلب الطلاق، قال "أسامة" وهو يهمس لي بعد خروج أبو زيد: "لقد عرفت أنه يشكو ضعفًا جنسيًا، قلتُ له هل هذا هو السبب فقط؟ قال بأنه قال لزوجته أن تزور زوجة "أبو زيد" وقد شعرتْ زوجتي بأن المرأة طلبتْ الطلاق بعد أن أفهمها الشيخ بأن طلاقها هو الحل، قلتُ له بأن ذلك قد يكون أفضل ما دام لم ينجب منها، سكتَ قليلاً وقال: "يبدو أن زوجة الشيخ ترغب في تزويجه منها أيضًا". قلت له: "لا عجب، ما دام قد ذكر لنا بأن لديه خادمتين من الفلبين، ترى ماذا يفعل بهما" هل كان سؤالاً خبيثًا؟ ابتسم "أسامة" ولم يعلق.

حكيت لرحيم ما جرى خلال الأسابيع الماضية، وقلت له يبدو أنــني سأعود إلى مصر مع نهاية هذا العام، انتهتْ الكويت بالنسبة لي.

في الأيام التالية، أُرغم "أبو زيد" على تطليق زوجته بمعرفة الشيخ في السفارة وحصلتْ على حقوقها كاملة منه على الرغم من طلبها هي الطلاق، ولا أدري ما السـر في رضـوخه في ذلـك، فهمـت أنـه خاف الفضيحة، وهددته هي بالفضيحة في السـفارة وأمـام رجالهـا، كانت معها زوجة الشيخ. في الأيام التالية أطلق أبو زيد" لحيتـه ولم يعـد يجلـس مـع أحـد منـا، كـان يعلـق جراحـه في محـراب عجـزه اللانهائي.

قال "أسامة" ذات مساء ونحن جالسان أمام التليفزيون في منزلي في أحد زياراته السرية هربًا مـن زوجتـه: "فـور انتهـاء عـدة البنـت، تزوجتْ من الشيخ، ويبدو أنها ستحضر للكويـت قريبًـا"، سـألته من أين علمت ذلك قال: "لي مصادري الخاصة". وحين علم "أبو زيد" بذلك انتقل لسكن آخر، فلا يمكن له أن يصبح ويمسي أمـام عار يطالعه كل يوم.

وذات يوم قال لنا بأنه عائد لمصر، ولا يمكـن أن يعـيش بالكويـت، وبالفعل لم يكمل عامه الدراسي، ورحل "أبو زيد".

أما السيد موجه المدرسة فقد تم تفنيشه هو الآخر، وبعد أسبوعين من تركه للكويت عاد مرة أخرى إلى أن وجد عملاً في وزارة أخرى بنصف الراتب الذي كان يقبضه في وزارة التربية، وكانت معه زوجته الصغيرة، ولحته في شوارع السالمية يسير خلفها حاملاً أكياس البلاستيك.

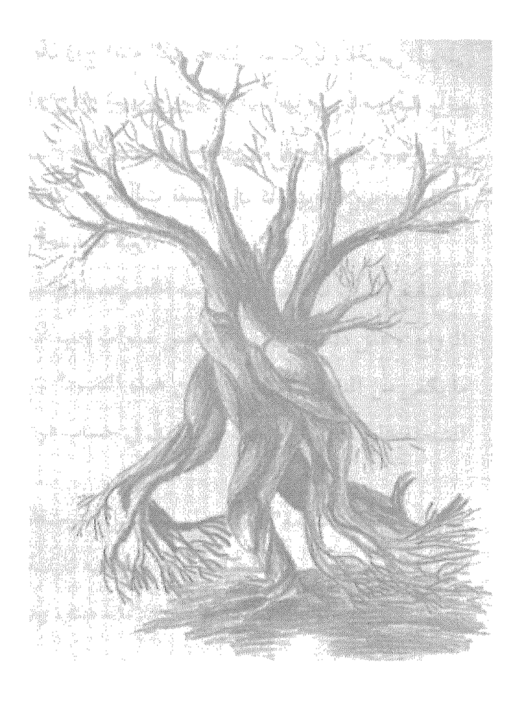
ماتت زوجة "أبو حمد" فجأة؛ فقد فشلت الكلية المزروعة في الاستمرار، وخلع الرجل نفسه من الحزن سريعًا، وعاد لسفرياته الشهرية إلى دبي ولندن.

أما سامح الفوال فقد غرق في دروسه الخصوصية، ونسي موضوع الزواج، وعلل ذلك بأنه في إعارة خمس سنوات يجب أن يعمل فيها ما يكفي من النقود. ولما سألته ولمن هذه النقود؟ لمح السخرية المشتعلة على ملامحي ولم يجب، واستغرق في حساب فوائد البنك.

أصرت زوجة "أسامة" فجأة على العمل، فتوسط لدى أحد أصدقائه من الكويتيين، فاشتغلتْ لديه في مكتبه تاركة أولادها في الصباح للخادمة الهندية التي دفعا فيها ثلاثمائة دينار، وفجأة بعد أيام

قررت إنهاء عملها والعودة إلى مصر، وفهم منها أسامة أن الرجل راودها عن نفسها، فلم ينطق بكلمة. وانتهت أيام زوجته في الكويت بنهاية العام الدراسي.

"كمال القلقيلي" يبدو مهمومًا على غير العادة، فلما سألته عن السبب قال بأن زوج ابنته الذي يعمل عسكريًا بالحرس الوطني طلقها بعد زواج دام شهرين بعد أن ضربها ضربًا مبرحًا، وأنه أحضرها من شقته أمس ولم يستطع أن يفعل معه شيئًا، قال: "ضاعت البنت"، وسألت نفسي إن كانت أحلامه هي التي ضاعت، فلم أجد فرقًا كبيرًا.



سطور لابد منها

البداية الأولى، البداية الثانية، البداية الأخيرة...

للموت بداية دائمًا كما للميلاد

قال لي "رحيم" ونحن واقفان بالمطـار: "اركـض وراء أحلامـك، لا تتركها، امسك بخناقها، لو كان لي رُبع أحلامك؛ لتركت الكويت".

قلت له: "لم أحكِ لك عن أحلامي".

قال: "لست بحاجة أن تحك لي، الجامعة تنتظرك، ولا أدري إن كانت "سوسن" تنتظرك أم لا، لا تبك كثيرًا على ما فات، أنا لن أستطع أن أترك الكويت أبدًا، فقد ماتت كل أحلامي فيها، ولا أملك غـير أحلام ميتة هنا، أريد أن أموت بجوارها".

صعدتُ الطائرة، وكان هو واقفًا في البعيد، ابتسـمتْ لـي المضـيفة المصرية السمراء، وكان هناك بها ما هو مألوفٌ لديَّ، روحٌ افتقـدتُها كثيرًا، فدخلتُ وأغمضت عيني على المقعد، وفوجئتُ للمـرة الأولى منذ زمن طويل بأني نمت نومًا عميقًا، ولا أدري السبب وراء ذلك.

احتضنني أبي، وسألتني أختي الصغيرة عما أحضرته لها، وطلب سائق التاكسي أربعين جنيهًا، دفعتها صاغرًا، وفي اليوم التالي ذهبتُ للجامعة جريًا وراء حلم الدراسات العليا.

قال لي "رحيم" بعد خمس سنوات بأنه تزوج من "فجر" هناك في الكويت، وأنهم عارضوا زواجه لكنه أصر، وأما "جاكي" فقد رحلت إلى أمريكا، وأنهم هناك تبنوا ولدًا مصريًا يبلغ من العمر سبعة أعوام.

أما التي لم أرها فهي "صبيحة" فهل كانت سرابًا؟ لا أدري، لمحت لها قصة على رفوف الكتب ذات يوم اهتممت بقراءتها كثيرًا.

أما "سوسن" فقد اختفت تمامًا، وسمعتُ مؤخرًا بأنها تزوجت بالفعل وتعيش في "قطر"، أما "سُنسُن" فكانت قد تم القبض عليها في قضية آداب، ومكثتْ بالسجن طويلاً، ولم أعلم عنها شيئًا.

بعد ذلك، وأحيانًا ما كان يزورني في أحلامي الولد العاري، وكنت أرى "صبيحة" معه في نفس الحلم، وكانت سيارة الشرطة تبدو بعيلة كعادتها دائمًا، ولم أكن أستطع أبدًا تفسير هذا الحلم.

بعد فترة من الزمن انقطعت أخبار الكويت تمامًا، حتى وجدت "أبو زيد" يسير في الشارع مطلقًا لحيته فلم أهتم بمناداته، وشحبت ذاكرتي رويدًا رويدًا، وصحيتُ ذات يوم على احتلال "صدام حسين" الكويت فانزعجت بشدة على الموجودين بها، أتذكر الجميع، لا أدري ما الذي يجب أن أفعله، ها أنا أحب هذا البلد الصغير وأهله والأصدقاء والأعداء وكل من كان بها.

* * *

أسير الآن في شوارع القاهرة في المساء، تلك المدينة التي لم تكن تستحق مني أن أهجرها هكذا، أنصت لأصوات الطيور والباعة الجائلين والأطفال والخطب السياسية ولـ"عبد الوهاب" حين يغني للصباح، لا أجد فرقًا بينها، وكان أهلها طيبين بشكل يبعث على الاطمئنان، فكنت أرخي لأحلامي الجناح وأحلق فوق مبانيها العتيقة.

في صباح رائق تملكتني رغبة جامحة في الذهاب إلى تلك النقطة الصفرية، أريد الذهاب لـ"سيدي براني" بمحض إرادتي، وبكامل

حريتي، لكي أعيد اكتشاف المكان، علّني أجد ذاتي التي فقدتها ذات يوم هناك، كنت أعتقد دائمًا بأني ظَلمتُ هذا المكان في ظل صراعاتي الداخلية، لم أتردد كثيرًا، وحين حططتُ الرحال في "سيدي براني" ذات يوم.شاهدت ذلك الطائر الأبيض الوحيد الذي يدور على رمال الشاطئ هناك.

أحمل في نفسي أحلامًا لا أدري إن كنت سأحققها أم لا، بعض الأطمئنان يترسب في القلب، وبعض السكون القديم قدم الأزل، كل ذلك يؤكد لي دائمًا أن الحياة طيبة تسير؛ لا تتوقف، تسير في عنف مقيت أحيانًا، بريء أحيانًا، مميع أحيانًا، لكنها تسير، قلبي تتوقف حدوده عند ما جرى، وعقلي لا يستوعب أحيانًا لكنه مجبر؛ ككل شيء؛ أن يسير فيما خطط، وروحي الهائمة لا مستقر لها، اللعنة على كل شيء، والرحمة لكل شيء.

ها هي نهايتي الأولى، فمتى تكون نهايتي الأخيرة؟ لا أعلم، ولا أظن أني سأعلم.

عليَّ الآن أن أنزع عن نفسي كل أسمال الماضي؛ كل الهلاهيل التي خرجت بها، ودخلت بها، عليَّ أن أمسح من ذاكرتي المؤقتة كل ما يمكن أن يوقفني، عليَّ أن أنهض في الصباح لأستمتع بمرأى

الشمس، لأنه سيأتي اليوم الذي ستغيب فيه إلى الأبد، أمرُّ أحيانًا دون أن أدري على كل أماكن لقيانا القديمة، لا أريد التطلع للعيون حتى لا أتوقف، سنوات تفصلني الآن عن الجميع، وآلاف الأميال، ومئات الثقوب في تلك الذاكرة الهشة، عليَّ أن أنهض فأمسح أوهام الذكرى وأوهام الجسد الذي اهترأ، وأوهام النفس في أمل لا يتحقق، عليَّ أن أستحم بظلال الهدوء فأركن قليلاً إلى ما يجب أن أفعله.

أدركتُ أن بإمكاني استعادة الكثير مما فقدت من روحي، وأن الشظايا الضوئية التي انفجرت يمكن أن تتحد مرة أخرى لتصنع لي أحلامًا جديدة.

أشد في خطوي أتنسم عبير الأشجار التي غسلتها الأمطار وأزهارها الملونة التي تفترش الأرصفة تعلن عن عالم جديد قادم لا أدري عنه شيئًا، تسبقني أحلامي دائمًا، أحاول أن أتتبعها، أحاول جاهدًا، زقزقة العصافير وضوء الشمس الخافت ورائحة الورود وابتسامة طفل يركض خلف ظله، كل ذلك يجعلني أبتسم في تحدٍ، فما زالت الحياة تولد كل يوم من جديد.



(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net

إذا لم تكن تدري من أين جئت

فليس من المهم أن تعلم إلى أين أنت ذاهب

زين عبد الهادي





